آخر أيام الماضي

آخر أيام الماضي

رواية

محمد الحمراوي

الطبعة الأولي ٢٠١٣

الغلاف : كريم آدم

المراجعة اللغوية : محمد عبد الغفار

اخراج داخلي : الحلم للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ١٥٩٦٧- ٢٠١٣

الترقيم الدولي : 978-977-6412-35-4

الحلم للنشر والتوزيع

٤ شارع الأشراف من شارع مؤسسة الزكاة - المرج

محمول : 01141824562

dar_el7elm@hotmail.com

آخر أيام الماضي

رواية

محمد الحمراوي

اهداء

الى حبيبتي ، وزوجتي المستقبلية (أسماء) . .
حين أفكر في اللحظات التي سبقت قراري بنشر هذا العمل ، لا أستطيع أن أتخيله بدونك .
كنت كما كنت دائماً حاضرة ، ملهمة وداعمة ، لم يكن لهذا المولود أن يرى النور دونما رحمك .
أي كلمات تلك التي من شأنها أن تصف ما صنعه وجودك بحياتي البائسة ؟
أرى نفسي عاجزاً عن أن أهديك أي شئ ، بعد أن أهديتني كل شئ .
لذا ، فاني أرجو أن تتقبلي مني هذا العمل كهدية أعبر بها عن حب لا يمكن للكلمات أن تصفه ، ولا تستوعبه المساحة المخصصة لهذا الاهداء .

في يوم من أيام مضت ، من حياة تشبه حياتنا ،
أو هي كذلك . .

مجهول الهوية

لم أكن بكامل وعيي وإدراكي حين التقطت أذناي جزءا من حديث دائر من حولي لأشخاص لم أميز أصواتهم حينها. كان أحدهم يخبر الآخر بخطورة إصابتي واحتمالية فقداني الكلي للذاكرة قبل أن ينصرف ويتفرغ الباقون لحديث آخر لم تسعفني أذناي بل وعيي بالأساس لإدراكه.

حين أفقت بعدها بساعات، أو أيام، وجدت نفسي بغرفة من غرف المستشفيات، إلا أنني لم أكن موقنا بأن تلك الغرفة تنتمي إلى مستشفى ما، لا أعلم سبب اعتقادي هذا، لكن هذا ما جال بخاطري حينها.

لم يكن بالغرفة أحد حين فتحت عينيّ، إلا أن أحدهم فتح الباب فجأة مرتديا البالطو ناصع البياض - الذي لا تراه في مستشفيات الحكومة - ففوجئ حين رأى عينيّ مفتوحتين كمن لم يتوقع حدوث ذلك، فصاح بأسماء أشخاص لم أتعرف على أحدها.

سرعان ما حضر إلى الغرفة رجلان طويلا القامة عريضا المنكبين أحدهما - وقد بدا الأكبر سنا - يرتدي حلة رمادية، والآخر - وقد بدا الأصغر سنا ومقاما أيضا - يرتدي حلة سوداء ويحمل بيده اليسرى جهازا لاسلكيا صغيرا. وقف الطبيب صاحب البالطو الأبيض متسمرا كمن ينتظر الإذن بممارسة عمله، إلى أن أومأ الرجل ذو الحلة الرمادية برأسه، فتحرك الطبيب نحوي يقيس ضغطي ويتأكد من انتظام نبضي، قبل أن يعود مرة أخرى إلى نفس الرجل ليخبره بأن حالتي الصحية لا بأس بها، وستتحسن خلال الأيام المقبلة

شريطة الراحة والغذاء الجيد.
همس الرجل ذو الحلة الرمادية إلى الطبيب بكلمات استنتجتها أذناي بأنه يسأل الطبيب عن حالة ذاكرتي، فعاد الطبيب إلي مرة أخرى ليسألني عن اسمي، فلما عجزت عن الرد سألني عن محل إقامتي، فلما عجزت مجددا عن الرد سألني عن سبب قدومي إلى المستشفى، فعاد الطبيب إلى الرجل ذاته بعد أن فقد الأمل في تلقي الإجابة فأكد له ما كان قد توقع حدوثه مسبقا، لكن حسم ذلك الأمر يظل متروكا للفحوصات التي ستُجرى عليَّ خلال الفترة المقبلة.
لم تكن تلك أخبارا سيئة للرجلين؛ فلم يبدُ عليهما الحزن أو الضيق، ولن أكون مبالغا إن قلت إن العكس كان الأقرب إلى الحقيقة.
لم تشغلني هوية الرجلين اللذين غادرا الغرفة بصحبة الطبيب؛ فقد كان لدي أمور أهم.. فأنا لا أتذكر اسمي! لا شيء عني، لا شيء عن الماضي، حتى إنني لا أذكر كيف حضرت إلى هذا المكان، بل حتى سبب تلك الإصابة الخطيرة، التي أوصلتني إلى هذه الحالة!
ما كنت واثقا منه حينها أن الجميع يعلم عني أكثر مما أعلم أنا، فأنا لم أكن أعلم عن نفسي شيئا على الإطلاق.
إن أكثر ما يرهق في مسألة فقدان الذاكرة هو أن يشغل بالك التفكير في إن كانت تستحق التطلع لعودتها، أم أنها باب من أبواب الشقاء المقيم!

العقيد مصطفى حافظ

بعد كل هذا العمر الذي أفنيته في خدمة هذا الوطن معليا لواءه محافظا على تطبيق قوانينه، أجد نفسي مضطرا لمخالفة تلك القوانين من أجل إنقاذ زملائي.. تبا لقوانين لا تحمي مطبقيها.

إن حكومتنا الخالدة لا تتوانى عن الدخول في مفاوضات مع كل من يزعم تهديد أمن إسرائيل، حتى إن لم يكن يهددها فعليا.

بإمكان حكومتنا أن تتفاوض مع «حماس» من أجل إطلاق سراح جندي إسرائيلي ،وهو مجرد جندي لا أكثر، لكنها تغض الطرف عن ثلاثة من ضباطنا خطفتهم «حماس» وتساومنا من أجل إطلاق سراحهم.

إنهم، حتى، يطالبوننا بتسليمهم واحدا من رجالهم الإرهابيين، الذين دخلوا إلى مصر مؤخرا ! وأقسم إنني لو كنت عثرت عليه لكنت قتلته بسلاحي الخاص متحملا كل العواقب والتبعات، لكني مع ذلك أجد نفسي مجبرا على العثور عليه وتسليمه لهم - دون علم حكومتنا المصونة - لاسترداد زملائنا الأسرى لديهم.

أي عبث هذا الذي يفرض عليَّ التفاوض مع أمثال هؤلاء والخضوع لشروطهم؟! ولِمَ لا؟ وقد تركت لهم الحكومة الفرصة سانحة أمامهم لحفر الأنفاق لتهريب المخدرات والأسلحة، وأيدتها في ذلك جماعة الإخوان المسلمين، الراعي الرسمي لحركة «حماس» الإرهابية.

بل حتى إن منظمات المجتمع المدني تلومنا على اعتقال ألوية الجماعة

ومحركيها! ربما يأتي ذلك اليوم الذي يذوقون فيه مرارتهم بعد أن يسقط الغلاف السكري الذي يغلفون به أنفسهم تحت مسمى «الإسلام هو الحل». الإسلام قد يكون حلا، لكن ليس عن طريقهم.

وجدت نفسي مجبرا على العثور على مازن، الذي لم أجد له أثرا بمصر كلها. وبالطبع لن يصدقونا إن أعلنَّا ذلك بشكل واضح لهم، على الأقل لن نسترد رجالنا، لكن الله أرسل لي مروان - شقيقه التوأم - هدية من عنده.

شخص مدان يحمل على ظهره الجريمة فوق الأخرى، فما الضرر في إرساله بدلا من أخيه؟ وبالطبع كانت مسألة فقدانه للذاكرة هدية على طبق من ذهب.

لن يتمكن أحد من معرفة إن كان هذا الشخص الذي لا يذكر حتى اسمه هو مروان خريج كلية الآداب جامعة الإسكندرية الذي سافر إلى فرنسا ثم عاد منها خالي الوفاض، أم هو مازن خريج كلية التجارة جامعة الإسكندرية الذي انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين قبل أن يرسلوه للانضمام إلى فرع فلسطين «حماس».

إنها حقا صفقة عادلة.

سمعت طرقات على باب مكتبي فناديت بالدخول فكان ذلك الجندي الذي يقف على باب مكتبي يخبرني بطلب العميد «زكي» لي في مكتبه، فنهضت من مكاني وتوجهت إليه على الفور.

طرقت الباب فأذن لي بالدخول ثم أشار لي بالجلوس.

- «هل كل شيء يسير وفقا للخطة؟»..

فأجبته:

- «أجل يا سيدي، بيد أن...»..

انتبه العميد زكي إلى حديثي وهو يسأل:

- «خيرا يا سيادة العقيد!»..

ترددت قليلا قبل أن أقول:

- «مسألة ذاكرته هذه تقلقني»..
فتساءل في دهشة:
- «وما الداعي للقلق؟»..
فأجبته:
- «الطبيب يؤكد أن مسألة فقدانه للذاكرة مسألة مؤقتة فقط، وسيسترد ذاكرته خلال فترة قصيرة»..
فنهض العميد عن مكتبه وهو يقول:
- «ولهذا يجب أن نسرع في إكمال خطتنا»..
- «لكن...»..
أراح ظهره وهو يقول بلهجة متفاخرة تناسب ذكاءه الذي دبر كل هذا:
- «هات ما عندك»..
- «ماذا إن استرد ذاكرته قبل أن يصل إلى هناك؟»..
فأجابني في ثقة:
- «لن يجد متسعا من الوقت ليتمكن من قول الحقيقة، ثم إن حينها سيكون قد وصل إلى هناك وتمت عملية التبادل، وهذا ما نحتاجه»..
فقلت بصوت مخنوق:
- «آمل ذلك»..
اقترب مني وربت على كتفي قبل أن يجلس على المقعد المواجه لي وهو يقول:
- «اطمئن، لن يكتشفوا الأمر. فقط استعد الآن لإجراء التحقيق كي نطمئن إلى المعلومات العالقة بذاكرته»..
فنهضت من مكاني وأنا أقول قبل أن أغادر مكتبه:
- «حسنا يا سيدي»..

مجهول الهوية

أمضيت قرابة الأسبوع داخل المستشفى أتلقى العلاج والغذاء الجيد الذي ذكره الطبيب. تحسنت صحتي كثيرا وسط اهتمام مبالغ فيه من الطبيب ومتابعة غير مبررة من الشخصين المجهولين بالنسبة لي.

لم يحاول أحد شرح أي شيء لي، فقط كانوا ينادونني بـ«مازن»، وعلى الرغم من أني لم أكن منسجما مع الاسم فإنني بدأت أتعامل معه.

كنت أنتظر نهاية المطاف، ذلك التوقيت الذي سأتعافى فيه. لا أعلم ماذا سيحدث حينها، حتى إن أحدا لم يطلعني على هويتي أو محل إقامتي الذي من المفترض أن أتوجه إليه عقب خروجي من هنا، لكن ما الذي يجعلني واثقا من الخروج من هنا؟ حتى هذا لا يمكنني الجزم به.

لكن يبدو أن تلك اللحظة قد حانت.. فقد حضر الرجلان إلى الغرفة بصحبة الطبيب وثلاثة من الممرضين مع نقالة فوق عجلات.. كان أحد الممرضين يجهز حقنة لا أعلم محتواها، قدمها إلى الطبيب حين انتهى من تحضيرها، فأخذها الطبيب بيده اليمنى ثم اقترب مني ووخزني بها في ذراعي اليسرى.

بدأت حينها أشعر بدوار يعصف بي وبملامح الناس من حولي التي بدأت تتلاشى تدريجيا حتى اختفت الرؤية مع حملهم لجسدي لوضعه على النقالة قبل تغطيته بالملاءة.

كنت أشعر بحركة النقالة التي استمرت لثوانٍ منحتني فرصة للتفكير في

مصيري المجهول.. لا أعلم هوية هؤلاء ولا أعلم إلى أي جهة ينتمون، لكني مع ذلك لا آبه.. شيء ما يدفعني إلى عدم المبالاة بالقادم.. إحساس داخلي بعدم التمسك بتلك الحياة البائسة.. فما الفارق بين ماض مجهول ومستقبل مجهول أيضا إلا حاضر بائس!

مضى وقت لا أعلم إن كان كثيرا أم قليلا، لكنه مضى، وانتهى بي جالسا على مقعد أمام منضدة مستطيلة في مواجهته مقعد آخر، لكنه شاغر، يشعرك بانتظاره لشخص ما بعينه. الغرفة تشبه في تفاصيلها تلك الغرف التي تصوَّر في الأفلام على أنها غرف للتحقيق حين يكون الأمر متعلقا بالمخابرات، لكني لا أملك التحقق من ذلك بمفردي فأنا لم يسبق لي دخولها من قبل، لكن.. ما يدريني أنا بذلك؟

لم أمض وقتا طويلا في انتظار القادم الذي بالتأكيد كان يتابع كل حركاتي عبر كاميرا مثبتة هنا أو هناك. كان القادم هو أحد الرجلين اللذين قابلتهما للمرة الأولى - تقريبا - في المستشفى، بالتحديد الأصغر سنا منهما.

«العقيد مصطفى حافظ».. هكذا عرَّف نفسه لي، ولم أكن أصدق أن هذا هو اسمه الحقيقي. ثم بدأ الرجل في سؤالي عن اسمي وأي معلومات أخرى عن هويتي الشخصية كأسرتي، أصدقائي، محل إقامتي، وأشياء أخرى.

لم أكن أملك إجابة عن كل تلك الأسئلة، لكنه مع ذلك استمر في طرح المزيد من الأسئلة، بل زاد من تعقيدها أيضا حين بدأ يسألني عن انتمائي السياسي، ثم تطورت درجة الأسئلة مع مضي الوقت ليسألني عن كيفية دخولي إلى مصر!

نعم، لم أكن واثقا من شيء، لكني لسبب ما لا أعلمه لم أفكر في مسألة كوني مصريا أم لا.. أيمكن ألا أكون مصريا؟!

مضت عدة دقائق من الأسئلة المتدفقة، التي لا أحمل لها إجابة بذهني الخاوي حتى نهض الرجل عن مقعده، وخرج من الغرفة وتركني وحيدا مجددا دون تفسير.

لا أعلم الجرم الذي ارتكبته؛ فأنا لا أعلم عن حياتي سوى اسمي الأول كما سمعته منهم، لكن أيًّا ما تكن جريمتي، فأتمنى ألا أمضي وقتا طويلا بهذه الغرفة الكئيبة وحيدا بين آلام البحث عن ذاكرتي المفقودة.

فجأة حضر رجلان آخران وتم اقتيادي إلى خارج الغرفة معصوب العينين في طرقة شعرت بضيقها، إلى أن وصلنا إلى الخارج، حيث الهواء الطلق، ثم دُفعت دفعا إلى داخل سيارة وإلى جواري شخص آخر كان منتظرا بداخلها. تحركت السيارة فور أن أغلقت أبوابها الواحد تلو الآخر، ويبدو أن رحلتي نحو المجهول قد بدأت للتو.

قبل ذلك بأيام . .

مروان

أنا مروان محمود مالك.. تخرجت في كلية الآداب جامعة الإسكندرية قسم اللغة الفرنسية بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف والأول على دفعتي.. أردت أن أكمل دراستي فسلكت الطريق إلى الدكتوراه فحصلت على الماجستير إلى أن أتيحت لي فرصة إكمال دراستي والحصول على الدكتوراه من جامعة مونبيلييه في فرنسا.

كان ذلك حلما بالنسبة لي لا يعدو كونه حلما؛ فتلك الجامعة التي درس بها الأديب العالمي الدكتور طه حسين ولطالما تأثرت بكتاباته التي أحفظ منها كتاب «الأيام» عن ظهر قلب.

كان ذلك انتصارا لطموحي، يفوق ذلك الذي حققته بحصولي على الماجستير، أو ذلك الذي قد أحققه إن حصلت على الدكتوراه من جامعة الإسكندرية بتاريخها العريق.

غير أن ما حدث عندما وطئت قدماي الأراضي الفرنسية لا يمت بصلة لكل تلك الخيالات الجميلة.. فقد تبدلت طموحاتي بشكل كبير، فصار سعيي إلى إصدار أول رواية مطبوعة لي بالفرنسية يفوق حرصي على الحصول على شهادة أخرى.

كنت على أي حال أذهب كل يوم إلى واحدة من أشهر المكتبات العامة في مونبيلييه، لا أعرف الترجمة الحرفية لاسمها، لكنها تعني «القراءة للجميع»، ولا أعرف إن كان للاسم علاقة بالمهرجان الذي كانت ترعاه السيدة الأولى

في مصر كل عام أم لا.
كان لتلك المكتبة بالغ الأثر في حياتي، إلا أن هذا الأثر قد تضاعف حين رأيتها للمرة الأولى. كانت شمسا مشرقة لا يشوب جمالها شيء. ترى في وجهها إطلالة توحي بأنها المركز ومن حولها تسبح الأشياء كلها.
رأيت كثيرا من الجميلات في مصر وفي فرنسا، وعلى الرغم من علمي بالفارق بين الاثنين فإنها كانت أجمل من رأيت في مصر وفي فرنسا أيضا.
تبدلت أيامي بشكل لافت للنظر وصرت أرغب في المبيت بالمكتبة خشية أن تزورها في ساعة لست حاضرا بها.. كنت دائما ما أسمع عم «لبيب» جارنا يردد: «القراءة بوابة الجمال»، لكنني لم أعتقد يوما في المعنى الحرفي للجملة إلا حين رأيت «سيمون». «سيمون» هو ذلك الاسم الذي نطقت به شفتاها المرسومتان بدقة بالغة لا يقوى على مضاهاتها أعظم رسامي عاصمة الجمال، حين مددت يدي إليها بالوشاح الذي سقط عن كتفها.
عدت في اليوم التالي راسما بخيالي «سيناريو» افتراضيا لحديث قد يدور بيننا. كنت قد حفظت تحركاتها داخل المكتبة، وتمكنت من معرفة الكتاب الذي دأبت على قراءته خلال الفترة الماضية، بل انتهيت من قراءته أيضا خلال الفترة بين تركها للكتاب في منتصف اليوم حتى صباح اليوم التالي؛ لذا فسأذهب مبكرا لأنتظر قدومها ثم سألتقط كتابها هذا حتى تأتي لطلبه مني كي تتمكن من إكماله.
وسيدور بيننا حديث شائق حول الكتب التي قرأها كل منا، وقد يأخذ الحديث منعطفا ضاحكا حين نبدأ في سرد المواقف التي أضحكتنا في كتبنا المشتركة.. كان خيالي خصبا يتسع للمزيد من السيناريوهات إلا أن شيئا واحدا لم يدركه خيالي هذا؛ فقد لا تأتي «سيمون»، وهو ما حدث فعلا.
غابت «سيمون» عن الحضور إلى المكتبة يوما تلو الآخر حتى أكملت أسبوعا كاملا بعيدة عن ناظري.. لم يكن لي في فرنسا مَن أشكو إليه همومي سوى صديقي «ميشيل»، الذي يعمل هو الآخر على رسالة الدكتوراه بجامعة

مونبيلييه أيضا وزوجته «سوزي»، وكنت قد اعتدت أن ألتقيهما يوم الأحد من كل أسبوع في مطعم «باستي».

هذا الأحد حضر «ميشيل» بمفرده ولم أهتم بسؤاله عن «سوزي»، فقد وجدت أن ذلك أفضل حتى يتسنى لي الحديث بأريحية أكثر، لكن تليفون «ميشيل» قطع عليَّ سلسلة من المقدمات التي اجتهدت في نصبها حتى يتسنى لي الشروع في الحديث عن «سيمون».

كان صوت «سوزي» على الجانب الآخر يخبره بأنها قادمة بصحبة صديقتها التي عرضت عليه إحضارها لتناول العشاء برفقتنا، وكما روى لي «ميشيل» فهي صديقة «سوزي» منذ الدراسة وتعمل صحفية بجريدة «لوموند» الشهيرة، لكنها شخصية انطوائية لا تملك من الأصدقاء إلا «سوزي»، تعيش حياة الرهبان فتمنح عملها معظم وقتها وما يزيد على ذلك تخصصه للقراءة والأعمال الخيرية.

كان «ميشيل» متصورا أنه يسرد عيوبها بحديثه هذا، إلا أن الأمر كان مختلفا بالنسبة لي.. لكني لم آتِ إلى هنا للحديث مع «ميشيل» عن صديقة «سوزي» بل عن «سيمون». «سيمون!».. انزلقت الكلمة من على لساني كاسرة حاجز شفتي فور أن رأيتها قادمة نحونا بصحبة «سوزي» فالتفت إليَّ «ميشيل» في ذهول متسائلا: «أنت تعرف سيمون؟!».

يصعب تفسير الأمر في لحظة مماثلة؛ فطلبت من «ميشيل» تجاوز الموقف وعدم ذكره أمامها حتى تسمح لنا الفرصة بالحديث على انفراد.

حين توقفت أمامنا «سوزي» برفقة «سيمون» نهض كلانا من مكانه، بينما كانت «سوزي» تقدم «سيمون» لي وتقدمني لـ«سيمون» التي بدا على وجهها تذكر لقائنا السابق.

تناولنا العشاء جميعا ودار بيننا على مدار ساعتين حديث ودي غير مرسوم مسبقا.. مهما بلغت خصوبة خيالي فلا يمكن مقارنتها بالتلقائية.

كنت مستمتعا بالحديث إلى «سيمون»، حتى إن كان في حضور «ميشيل»

و«سوزي»، بل حتى إن لم يدر بيننا أي حديث من الأساس؛ فرؤية وجهها الصافي من هذه المسافة القريبة تكفيني، لكن عادة أوقاتنا السعيدة أنها لا بد أن تصل إلى نهاية، كانت تلك النهاية حين طلبت «سيمون» الانصراف حتى تتمكن من الذهاب إلى عملها باكرا من صباح اليوم التالي.

حينها نهض «ميشيل» قائلا:

- «ونحن أيضا يجب أن ننصرف.. هيا بنا يا سوزي»..

ثم التفت إلى «سيمون» قائلا:

- «بإمكان مروان أن يصحبك إلى منزلك إن لم يكن لديك مانع»..

فالتفتت «سيمون» نحوي وهي تقول في خجل احمرت له وجنتاها:

- «حسنا، إن لم يكن لدى مروان مانع فلا بأس».

كان المشي إلى جوار «سيمون» حلما لم أكن لأدركه في أفضل أحلامي وأكثرها تفاؤلا. كنت صامتا طوال الطريق حتى كسرت «سيمون» حاجز الصمت هذا بقولها:

- «أنا أراك كل يوم في المكتبة بالمناسبة».

- «نعم، وأنا أيضا.. لكنك لم تذهبي إلى المكتبة منذ أسبوع»..

- «هذا صحيح، فقد كنت في باريس الأسبوع الماضي...»..

ثم توقفت فجأة والتفتت نحوي في ذهول وابتسامة ماكرة وهي تقول:

- «أنت تراقبني إذًا!»..

ارتبكت وأنا أنفي ذلك باحثا عن حجج مقنعة لذكرها فضحكت هي ضحكة مسموعة بدت من أعماق قلبها.

فصمتُّ لبرهة قبل أن أقول:

- «نعم يا سيمون، لقد كنت أراقبك خلال الأيام الماضية، وحزنت كثيرا لغيابك الأسبوع المنصرم، وفوجئت حين رأيتك قادمة بصحبة سوزي.. لا أجد تفسيرا مناسبا لهذا ولست نادما على قوله»..

ابتسمت «سيمون» في خجل ثم توقفت لتقول: «أنا أسكن هنا» وهي تشير

إلى الباب الذي توقفنا أمامه.

- «حسنا»..

- «حسنا»..

- «سأنصرف الآن».

- «حسنا»..

أشرت بيدي لها كي تدخل البناية ومشيت أنا خطوةً أو خطوتين مبتعدا عنها إلى أن أكملت هي طريقها إلى الداخل وهي تقول:

- «إلى اللقاء».

فرددت أنا بدوري:

- «إلى اللقاء».

ومضيت في طريقي بضع خطوات حين هتفت باسمي فجأة فالتفتُّ نحوها لأجدها واقفة أمام البناية تقول:

- «أراك غدا في المكتبة».

فابتسمت ابتسامة عريضة وأنا أقول: «بالتأكيد».. ثم انصرفت بعد أن اختفى آخر أثر لها داخل البناية.

ميشيل

كنت أخلع عني الجاكيت في سعادة بالغة وأنا أقول في زهو:

- «ما فعلناه اليوم جدير بالرضا»..

لكن يبدو أن «سوزي» الصامتة كان لها رأي آخر.. كثيرا ما أجهل ما يدور برأسها، لكن هذا لا ينفي كوننا نشكل ثنائيا مميزا وناجحا أيضا.

أردت أن أستوضح الأمر من «سوزي» فوجهت إليها الحديث قائلا:

- «ما الخطب يا سوزي؟»..

فجلست على السرير بعد أن ألقت بحقيبتها إلى جانبها وأطرقت إلى الأرض عابسة، قبل أن تقول:

- «لست مرتاحة لذلك يا ميشيل»..

- «تقصدين مروان وسيمون؟»..

- «نعم»..

جذبت مقعدا قريبا فجلست إليه في مواجهتها وأنا أتساءل مستوضحا:

- «وما يزعجك في هذا الأمر؟»..

رفعت بصرها النادم على فعلة لم ترتكبها وهي تقول في حنق:

- «أنت تعلم جيدا الفارق بين الاثنين»..

فرددت بشكل آلي مخمنا الجانب الذي تقصده من حديثها:

- «لا أعتقد أن كون مروان عربيا وسيمون فرنسية قد يشكل أمرا جللا، أتعلمين عدد العرب المقيمين في فرنسا والمتزوجين من فرنسيات؟ إنهم أكثر

من الفرنسيين أنفسهم!»..
ضحكت وأنا أقول جملتي الأخيرة مازحا لأهون عليها ولو قليلا، لكن دعابة سخيفة ليس من شأنها أن تهون على «سوزي» التي تتحدث إليَّ كما الاعتراف في الكنيسة.
صمتت قليلا ثم قالت في ضيق:
- «ليس هذا ما أعنيه يا ميشيل»..
- «هاتي ما عندك يا سوزي»..
زفرت «سوزي» أنفاسا غاضبة كمن تحاول إخراج همومها معها، ثم نهضت وتمشَّت قليلا نحو الدولاب الكبير بالغرفة وأشعلت سيجارة من سجائرها المعتادة قبل أن تتوقف أمامي فتسحب نفسا من سيجارتها ثم تقول:
- «أنت تعلم أن مروان مسلم، وسيمون يهودية، وهذا يشكل عائقا كبيرا أمام نشوء تلك العلاقة»..
نهضت أنا أيضا ثم خطوت باتجاهها وأنا أقول:
- «لا أظن ذلك يا سوزي، فأنت تعلمين أن مروان شخصية متحضرة ومثقفة وواعية ولا تميز بين الأشخاص على أساس الدين!»..
صمتت لبرهة أتبعتها بصوتها المتهدر وهي تقول:
- «لا أقصد مروان بحديثي هذا يا ميشيل»..
رسم الذهول لوحة كاملة المعالم على وجهي وأنا أقول:
- «لا أفهمك!»..
انفعلت وهي تقول:
- «أنا أقصد سيمون، مروان مسلم، والإسلام يبيح له مسألة الزواج من غير المسلمة، أما سيمون فدينها يمنعها من ذلك.. لا ينبغي لتلك العلاقة أن تكون يا ميشيل»..
لم أجد ما أرد به على «سوزي»؛ فقد كانت محقة بعض الشيء، لكن هذا لا يعني اقتناعي بحديثها بشكل كامل يغلق معه باب المناقشة.. صمتُّ برهة

ثم عدت لأقول:
- «حتى إن كان كلامك صحيحا، فما ذنبنا نحن يا سوزي؟ هذا اختيارهما»..
انفعلت «سوزي» وهي تخطو مسرعة باتجاه السرير لتلقي بنفسها جالسة عليه منكسة الرأس في أسى بالغ لم أعتَد رؤية آثاره على وجهها البريء وهي تقول:
- «كلا يا ميشيل، نحن المسئولان عن ذلك.. أنسيت أننا من عرفناهما ببعضهما؟ كل هذا كان من ترتيبنا يا ميشيل.. لولانا ما التقى مروان سيمون»..
عدت إلى المقعد ذاته في مواجهة «سوزي» محاولا التخفيف من حدة انفعالها قائلا:
- «لقد أردنا الخير من وراء ذلك يا سوزي.. خدمة أردنا تقديمها لأعز أصدقائي وأغلى صديقاتك»..
رفعت «سوزي» رأسها ببصر شارد ولهجة حزينة:
- «لكن الأمر انقلب شرا يا ميشيل»..
فقلتُ محاولا التهوين عليها من حزن قد بدأ يتسرب إلى قلبها الرقيق:
- «لا تبالغي في تقدير الموقف يا سوزي»..
- «لست أبالغ يا ميشيل.. ولن أسامح نفسي على ذلك»..
قالتها بلهجة نادمة ملؤها الأسى.
لا شيء يؤلم الرجل بقدر ما يؤلمه رؤية من يحب وقد ألم بها الهم فعجز عن حمله عنها، لكن تداركتُ الآن أمرا مهما كان قد فاتني سؤال «مروان» عنه، لكنه حقيقة..
- «لكن مروان كان يعرف سيمون قبل الليلة يا سوزي»..
انتبهت فجأة وهي تقول:
- «مستحيل! كيف ذلك؟»..
- «لقد جرى لسانه باسمها فور أن رآها قادمة بصحبتك، لكنه لم يفسر لي

الأمر حينها.. وبالتأكيد هي أيضا تعرفه»..

- «لكن هذا لا ينفي مسئوليتنا يا ميشيل»..

فرددتُ بلهجة متعقلة:

- «أنتِ تعلمين يا سوزي أن أمورا مثل تلك لا يملك أحدنا منها شيئا.. إن كانت مصائرهما متشابكة فسيلتقي قلباهما ولو بعد حين. ولا تنسي أبدا أن لقاءنا الأول كان في أفريقيا، يوم أن وقعت عيناي على صاحبة هذه البشرة السوداء الجميلة، فمن كان يدري حينها أن نصفي الآخر موجود في الطرف الآخر من العالم؟!»..

ثم اقتربتُ منها فأمسكت بيدها وأنهضتها وقبّلت جبهتها ثم احتضنتها.

لا يمكنني تصور حياتي بلا «سوزي»؛ لذا فإنني وفي كل صباح أجلس على ركبتي فأصلي إلى الرب كي يحفظها لي، وأن ينتزع من عمري كي يضيف إلى عمرها.

سيمون

لا أعلم كيف انجذبت إليه إلى هذه الدرجة، لكنه سحرني بكل بساطة ومنذ الوهلة الأولى.. كنت واثقة من إعجابه بي، لكنه لم يكن يعلم أني أبادله الإعجاب.. حاولت لفت انتباهه، لكن ارتباكه منعه من الملاحظة.. حتى إنني تصرفت كالمراهقات حين أسقطت عني الشال عن عمد كي أذيب الجبل الجليدي الذي يسد الطريق بيننا، لكن بلا جدوى.

حين طلبت مني «سوزي» مرافقتها لم تذكر شيئا عنه، أرادت أن تكون مفاجأة لنا، وأنا من كان يرفض مرافقتها!

حين رأيته بصحبة «ميشيل» تأكدت من أن القدر اختاره لي قبل أن أختاره أنا.. طمأنت رؤيته مخاوفي التي رافقتني في باريس وأعطتني الضوء الأخضر للمضي قدما.

الآن أنا عاجزة عن النوم، أحسب الدقائق، بل اللحظات المتبقية على لقائي به في المكتبة كما اتفقنا.. لا أعلم الكثير عنه، بل لا أعلم شيئا على الإطلاق، لكني أعلم أن ما أشعر به الآن إحساس لم يختبره قلبي مسبقا.

تلاشت كل أفكاري مع انغلاق جفني بشكل تدريجي، حينها غرقت في بحر الأحلام معه.. صور كثيرة حسبت أنني لن أختبرها يوما ما، والآن أجدها غير كافية للوصول بي إلى شاطئ إحساسي.

قد أكون مبالغة بعض الشيء، لكن من انتظرت هذا العمر كله بحثا عن فتى أحلامها، حتى ظنته غير موجود إلا في الأحلام فقط، ثم فجأة ودون

مقدمات وجدته واقعا حيا ملموسا لا تجد في ذلك مبالغة.

لا أعلم لِمَ تبطئ الساعة الآن! الإنسان ليس صبورا بطبعه، بل يتعلم الصبر من اختبار المواقف التي يجبَر فيها عليه، لكن بالتأكيد ليس هذا الموقف.

قفزتُ من فراشي حين اقتربت الساعة من السابعة صباحا وأخذت في الاستعداد ليوم لطالما انتظرته.. استغرقني الاستعداد للنزول الكثير من الوقت، فلم أكن أهتم باختيار ملابسي بشكل يومي، ولم أكن أعبأ بتناسق الألوان هذا أو اختيار تسريحة شعر تناسب الملابس التي سأرتديها.

لكن في نهاية المطاف تمكنت من اجتياز المحنة والخروج من الشقة بسلام.

هبطت الدرج وخرجت من باب البناية لأجد «مروان» أمامي.. سقطت حقيبتي من يدي وارتبكت بشكل واضح، لكن قرب أنفاسه وهو يعيد إليّ الحقيبة ساعدني على استعادة هدوئي وتمالك أعصابي.

كان «مروان» هو ذلك الشخص الجريء الخجول، تركيبة يصعب فهمها، لكنها رائعة؛ فـ«مروان» الذي فاجأني بانتظاره لي أسفل البناية هو نفسه «مروان» الذي ظل يعتذر لي قرابة نصف ساعة على ما سببه لي من إزعاج!

كنت ولأول مرة أجد الطريق إلى المكتبة ممتعا إلى هذه الدرجة؛ فقد كان خيالي يستثني من الطريق كل شيء إلا «مروان» والأشجار المحيطة بنا من كل جانب. كان «مروان» قليل الكلام بطبعه، لكن عينيه تلمعان بمتعة في الإصغاء لحديثي الممل عن طفولتي وأيام الجامعة.

قلت كل شيء أسعفتني ذاكرتي على تذكره، بينما ظل «مروان» صامتا طوال الطريق إلا من بضع كلمات أكاد أحصيها. لا أجد ذلك سيئا؛ فالرجال بطبيعتهم يميلون إلى الصمت بخلافنا نحن النساء. وما دام الرجل لا يجد غضاضة في الإصغاء لحديث المرأة فنعم الرجل.

حين وصلنا المكتبة، كانت تلك هي المرة الأولى التي أدخل فيها إلى المكتبة برفقة أحدهم.. فقد كنت دائما وحيدة، لا سيما إن كان الأمر يتعلق بالقراءة التي لا تفضلها «سوزي» كثيرا.

كنت أسبح في فلك المكتبة وبين الكتب كطير حر طليق مع وليفي «مروان». لا أستطيع أن أصف سعادتي حينها، فتلك المرة الأولى التي أجد فيها من يشاطرني متعة حياتي الوحيدة.

كان لكل منا كتابه الخاص وعالمه الخاص؛ فكنت أنا أبحث عن السياسة وهمومها، ويبحث «مروان» عن الأدب وجماله. وما كان لجمال الأدب هذا على شموليته أن يشمل ما يجمعني بـ«مروان» من مشاعر لا تعرفها كلماته على كثرتها.

مروان

دعاني «ميشيل» للتمشية برفقته لرؤية معالم مونبيلييه التي أحفظها عن ظهر قلب. «ميشيل» لا يجيد الكذب؛ لذا فهو حتما يرغب في محادثتي في أمر ما. أتمنى ألا يكون شجارا قد نشب بينه وبين «سوزي». «سوزي» حادة الطباع بحكم أصولها الأفريقية، لكنها طيبة أيضا مثل «ميشيل».

كنت و«ميشيل» نأخذ جولة في الساحة الشهيرة «بليس دو لا كوميدي» ذات الشكل البيضاوي المميز التي تعد واحدة من كبريات ساحات التمشية في أوروبا. مشهد فناني الشارع من الرسامين والعازفين سيظل دوما مشهدا غير مألوف بالنسبة لي على الرغم من كثرة مروري بالساحة.

توقفت فجأة في أثناء سيرنا، فتوقف «ميشيل» هو الآخر، فالتفتُّ نحوه وأنا أقول بلهجة صديق يعرف صديقه جيدا:

- «هات ما عندك يا ميشيل»..

ارتبك «ميشيل» وصار يهز رأسه نافيا في عشوائية قبل أن يقول في توتر:

- «لا شيء عندي لأقوله يا مروان!»..

ثم التفت نحوي وقال في مكر:

- «ربما لديك أنت ما تقوله!»..

كان سؤاله مثيرا لدهشتي، فحتما لست أنا من عرضت عليه جولة في أماكن لا أجهلها، ولست أنا أيضا من يراوغ الآن محاولا استدراجي للحديث عن أمر أجهله.

- «كلا، لا شيء على الإطلاق، لكن أنت من دعوتني لمرافقتك، فيبدو أن لديك أمرا ما في جعبتك، أخرجه وأرح بالك يا صديقي»..

- «لا لا.. ليس لديَّ شيء على الإطلاق. هل صار غريبا أن أطلب من صديقي الوحيد التمشية قليلا برفقته في المدينة؟»..

قالها ومضى في طريقه نحو التمثال الذي يتوسط الساحة فتبعته وأنا أقول:

- «كلا يا ميشيل، ليس غريبا على الإطلاق»..

ثم صمتُّ برهة أحاول استنتاج ما أراد «ميشيل» دفعي إلى الحديث عنه دون جدوى، فأردت استدراجه أنا كما فعل هو لعله يجود بما بداخله، فقلت وأنا أدور ببصري بين البنايات القديمة الرائعة متسائلا في مكر:

- «وكيف حال سوزي؟»..

- «سوزي بخير»..

قالها في ذهول وهو يتوقف فجأة عن السير، قبل أن يلتفت نحوي ليسألني:

- «كيف حالك أنت مع سيمون؟»..

كنت سعيدا لسؤاله عن «سيمون»، ليس فقط لأنه صديقي الذي يسعدني اهتمامه بسير حياتي، لكن أيضا لأني أفرح حين يستدعي الحديث ذكر اسمها على لساني، تنتابني سعادة غامرة لمجرد الشعور بحضورها السامي في حديثنا.

- «أنا وسيمون نقضي أسعد أيامنا يا ميشيل، لقد اتفقنا حتى على الانتقال للعيش معًا»..

ارتفع حاجباه وهو يقول ذاهلا بشكل لم يبدُ مبرَّرًا بالنسبة لي:

- «بهذه السرعة؟! ولم العجلة يا مروان؟»..

- «أي عجلة يا ميشيل؟ مضى على بداية تلك العلاقة قرابة الثلاثة أشهر»..

- «نعم نعم، لكن هذا لا يمنع التأني قبل اتخاذ خطوة مماثلة»..

أشم رائحة «سوزي» في حديثه هذا، «ميشيل» ليس معتادا على المراوغة في حديثه أو إخفاء ما بداخله، «ميشيل» شخص شفاف للغاية، يمكنك رؤية ما

بداخله حتى إن لم ينطق بكلمة.
- «ما الأمر يا ميشيل؟»..
فجأة فاض الكيل بـ«ميشيل» فخرج منه الكلام مندفعا لا يلقي له بالا:
- «مروان.. أنت تعلم أن سيمون يهودية وأنت مسلم. إذًا، فأنت تعلم ما الأمر»..
فرددت متعجبا:
- «لا أجد مشكلة في هذا»..
فقال بلهجة حازمة:
- «لكن ينبغي على سيمون أن تجد مشكلة في هذا»..
فسألته في قلق:
- «هل حدثتك سيمون في الأمر؟»..
فرد «ميشيل» وقد بدت على ملامحه الضيق:
- «كلا، وهذا هو صلب المشكلة.. أنتما لا تفكران في الأمر حتى!»..
- «وماذا يجبرنا على اختلاق العوائق؟ أليس الحب وحده كافيا؟»..
- «العوائق موجودة بالفعل يا مروان!»..
- «وأين كانت تلك العوائق إذًا حين تزوجت أنت الفرنسي الأبيض من سوزي الأفريقية السوداء؟»..
- «وما دخل اللون في الأمر يا مروان؟»..
- «وما دخل الدين يا ميشيل؟»..
صمت «ميشيل» قليلا كمن يفكر في ردي الأخير، كان ردي كافيا بإنهاء حديث ما كان له أن يبدأ، فأطرق «ميشيل» قبل أن يمضي قائلا:
- «حسنا يا مروان، اسمع.. أنا أجد كلامك منطقيا، لكني مع ذلك أشفق عليكما من ألم الفراق»..
كنت أتفهم قلق «ميشيل»؛ فهو بالأساس قلق على مستقبل صديقه الوحيد الذي يخشى أن تمسه نيران الفشل في علاقته العاطفية الأولى، إضافة إلى قلق

«سوزي» بشأن صديقتها، وهو ما دفع «ميشيل» إلى هذا الحديث الغامض. لم يكن أمامي إلا أن أطمئنه ببعض الكلمات، فهذا هو أقصى ما يمكنني تقديمه في الوقت الحالي..

- «لا تقلق يا ميشيل، فأنا لن أتخلى عن سيمون مهما حدث»..

ابتسم «ميشيل» وهو يربت على كتفي قائلا:

- «أتمنى ذلك يا مروان.. أتمنى»..

ميشيل

لا أعلم أيهما على حق: «مروان» أم «سوزي»؟ أنا مؤمن بوجهة نظر «مروان»، وفي الوقت ذاته أجد حديث «سوزي» منطقيا!

«مروان» محق، فأنا من ارتبطت بالفتاة الأفريقية السوداء ولم أفكر يوما في كون ذلك شاذا أو حتى اعتبرته أمرا يستحق مني مجرد التفكير أو المراجعة.. لماذا الآن أطلب منه التخلي عن الفتاة التي يعشقها أو حتى إعادة التفكير في الأمر في حين لم أفعل أنا؟

«سوزي» محقة أيضا، الدين عائق أمامهما، لكن الله الذي خلق الحب هو من بعث الرسل برسالة الحب لكل خلقه.. أكان الله عاجزا عن حجب الحب بين المسلمين واليهود أو غيرهم؟ كلا بالطبع، تعالى عن العجز وهو خالق كل شيء.

قصة «مروان» و«سيمون» لا تستحق كل هذا الاهتمام والتعقيد الذي تفرضه «سوزي» بقلقها المفرط.. فما وجه المقارنة بينها وبين قصة «لانسيلوت» و«غوينفير» على سبيل المثال؟

«لانسيلوت» هو أحد فرسان المائدة المستديرة وأهم أتباع الملك «آرثر» المخلصين. وقع «لانسيلوت» في غرام الملكة «غوينفير»، زوجة الملك «آرثر»، وتطورت علاقة الحب بينهما ببطء وسرية، لكن الملكة لم تستطع صبرا وأعلنت عشقها له ثم هربا معا.

وفي ذات ليلة هاجمت مجموعة تابعة للملك مؤلفة من ١٢ فارسا بيت العاشقين، فتمكن «لانسيلوت» من الفرار، لكنهم ألقوا القبض على «غوينفير» فحُكم عليها بالموت حرقا بتهمة الزنا.
وبعد أيام، عاد «لانسيلوت» لإنقاذها من الحرق. وحين أُلقي القبض عليه انقسم الفرسان بين من يريد قتلهما ومن يريد العفو عنهما، مما أضعف حكم الملك «آرثر».. المهم أن الأمر انتهى بالعشيقين إلى كنيسة بائسة.
التاريخ مليء بالقصص والحكايات التي تتسع لقصة «مروان» و«سيمون»؛ لذا فإني الآن لا أجد «سوزي» محقة في مخاوفها وأتمنى أن أكون محقا.
- «أنا جاهزة يا ميشيل»..
قالتها «سوزي» وهي تتأكد من وضعية قرطيها، فنهضت أنا بدوري من فوق مقعدي أتأمل جمالها الأخاذ في فستانها الوردي القصير، قبل أن أقول في ابتسامة راضية شاكرة للرب:
- «وأنا أيضا»..
خطوت نحوها بعينين هائمتين تبحثان عن الجمال القابع في مملكة عينيها الساحرة، ثم امتدت يدي إلى يدها لأطبع عليها قبلة تحمل إليها ما يعجز لساني المتثاقل عن البوح به. ثم تقدمت لأفتح لها باب الشقة، فخرجت منه بخطوات متباهية، كملكة متوجة رمقت عبدها العاشق بنظرة رضا فتهللت أساريره فرحا وهو يتبعها إلى الأسفل.
كان مطعم «لاتوليه غورموند» الفاخر بحوائطه عنَّابية اللون والبلاط المنتمي لطراز العمارة الموريسكية الحديثة وأطباق الشيف «باسكال فيند» الشهيرة لا تعني لي شيئا إلا أنها الأشياء التي ترسم البهجة على وجه «سوزي».
حضر الجرسون مبتسما فسألتني «سوزي» التي ملأت المكان بسعادتها:
- «ماذا ستختار يا حبيبي؟»..
فأجبتها في ابتسامة لا تفارق وجهي:
- «سأترك لك الاختيار يا حبيبتي»..

فاختارت لنا «سوزي» البط مع موس الأفوكادو واقترحت أن تكون التحلية بكأس من الشيكولاتة البيضاء المثلجة مع جيلي الفراولة، فرحبت باقتراحها الذي أزعم أنها قرأته في عيني قبل أن تقرأه من قائمة الطعام.

رفعت «سوزي» بصرها نحوي وقد بهتت فرحتها متسائلة في قلق:

- «هل أنت سعيد معي يا ميشيل؟»..

كان سؤالا مفاجئا بالنسبة لي، فلم أكن أتوقع أبدا أن تسألني من أحيا من أجل إسعادها إن كنت سعيدا معها أم لا! وما سعادتي إلا في وجودك يا «سوزي».

- «أنا من يتعين عليه السؤال يا سوزي.. هل أنت سعيدة معي؟»..

كانت عيناها تفيضان حبا وهي تقول بلهجة ناعمة:

- «بالطبع يا ميشيل، أيعقل ألا أكون سعيدة؟ أنا أحسد نفسي عليك يا ميشيل، ولا أتصور أبدا حياتي من دونك»..

كانت السعادة التي تسربت إلى قلبي مع كلماتها الرقيقة كفيلة بأن تجعلني أقفز من مقعدي فرحا كطفل صغير نال لتوِّه اللعبة التي تمناها لأشهر مضت.

- «أنا من يحسد نفسه يا سوزي، فأنت الملاك الذي أدخل السرور إلى قلبي الضعيف»..

صمتنا للحظات لم تصمت فيها عيوننا، لكن الجرسون قطع هذا الحبل الممتد بيننا حين حضر حاملا أطباق العشاء.

مروان

كنت جالسا على الأريكة مشغولا بقراءة كتاب «أحلام اليقظة للمتجول الوحيد» للمبدع جان جاك روسو حين وضعت «سيمون» فنجانا من القهوة أمامي فأغلقت صفحات الكتاب واعتدلت في جلستي وأتت هي بدورها لتجلس إلى جواري لتلقي برأسها إلى صدري حيث تنتمي.

كنت أعشق شعر «سيمون» ولطالما أحببت ملامسته لراحة يدي ومداعبة وجهي.. كنت أعشق كل تفصيلة في «سيمون»، ليس شعرها فحسب.

كانت «سيمون» تمرر يدها على وجنتي لتلامس لحيتي النابتة في خشونة تثير بداخلي قلقا من أن تجرح يديها الرقيقتين وهي تقول:

- «حدثني عن الصفات التي تمنيتها في فتاة أحلامك يا مروان؟»..

كان السؤال غير متوقَّع، لكني أجبت مباشرة؛ فالمسألة ليست وليدة اللحظة برأسي، بل شغلت حيزا من تفكيري مسبقا:

- «إن سألتك ما مواصفات السيارة التي تتمنينها؟ ماذا ستقولين؟»..

استغرقت لحظات من التفكير قبل أن تجيب سؤالي قائلة وسبابتها إلى جانب رأسها:

- «امممممم.. لطالما أردت سيارة فيراري حمراء بشكلها الانسيابي المميز وفتحة السقف وغيرها من الإمكانات»..

أمسكت بيدها وأنا أقول:

- «حسنا، هذه الفيراري سوف تشترينها بنقودك لتركبينها وقت ما تريدين،

ثم تتركينها بالجراج وقت ما تريدين أيضا، ومتى قررتِ استخدامها ستجدينها تنتظرك في مكانها الذي لن تبرحه.. أتظنين أن المقارنة ستكون عادلة إن طبقتها على شريك حياتك؟»..

فهمت «سيمون» المغزى فلمعت عيناها بنظرة حب لا أظن أنني رأيتها مسبقا، ثم احتضنتني بقوة كمن شعرت بحسن اختيارها، ثم مضت في قولها:

- «هل حقا تحبني إلى هذه الدرجة يا مروان؟»..

ضحكت ضحكة خبيثة تنم عن محاولة لاستثارة غضبها اللذيذ وأنا أقول:

- «أجل أحبك.. قليلا»..

احمر وجهها الطفولي غضبا وهي تدفع عني ذراعي التي كانت قد طوقتها لتعتدل في جلستها بعيدة عن ضمة صدري لها، فانفجرت ضاحكا وأنا أقول:

- «لقد كنت أمزح فحسب»..

ثم عدلت بأصابع يدي خصلة من شعرها تدلت لتخفي عينيها الجميلتين قبل أن أغرق في بحرهما المعسول وأنا أقول:

- «وماذا يعني الحب إن لم يكن لك يا سيمون؟»..

تضاربت مشاعر «سيمون» بين الخجل والفرح، فأرادت أن تنقل مشاعرها إليّ كما هي، فاحتضنتني بقوة حتى صارت المسافة بين قلبينا تسمح بقول ما لا يملك اللسان قوله.

سيمون

الليلة سنستضيف «ميشيل» و«سوزي» على العشاء في شقتنا لأول مرة.. ولأول مرة أيضا أشعر بذلك الدفء العائلي الذي يجمعني بـ«مروان» وصديقينا «ميشيل» و«سوزي».
إحساس لا يمكن التعبير عنه أو وصفه بكلمات مبتذلة.. إن أي امرأة في هذا العالم تحتاج إلى الرجل كحاجته إليها.. هكذا خلقنا الله متكاملين.. فلا صحة لأي ادعاء حنجوري عن تحرر المرأة باستغنائها عن الرجل.
أرى أن حرية المرأة ليست موضوعا للنقاش، واستقلالها المادي وطموحها المهني جزء لا يتجزأ من تلك الحرية، لكن أي حرية لا تقوم على وجود الرجل في حياتها تظل حرية ناقصة.
كان «مروان» يجهز المائدة لاستقبال الطعام حين دق جرس الباب معلنا وصول الزوجين السعيدين «ميشيل» و«سوزي». أحيانا أشفق على «ميشيل» من حدة طباع «سوزي»، لكنها تظل طيبة على الرغم من ذلك ويكفي أنها تحبه أكثر من حبه لنفسه.
خرجت من المطبخ لاستقبالهما برفقة «مروان» الذي يشعر بالاطمئنان والراحة في وجود «ميشيل»، ثم دخلت إلى المطبخ برفقة «سوزي»، بينما جلس «مروان» بصحبة «ميشيل» يتحدثان في الأدب الفرنسي كعادتهما.
أحيانا أستمتع بالاستماع إلى مناقشاتهما تلك التي تخلو من كآبة السياسة.
كان «مروان» طموحا، بالنسبة لشخص في مثل سنه من المبكر أن تبدأ في

كتابة روايتك الأولى بلغة بلد لم يمر عام على إقامتك به! حتى إن كان البلد وأدبه هما مجال دراستك.

سألتني «سوزي» إن كانت الأمور بيننا تسير على ما يرام أم لا.. وجدته سؤالا طبيعيا بيد أنها لم تتوقف عن الأسئلة بعدها:

- «أترين أنه الشخص المناسب لك يا سيمون؟»..

كان سؤالا مفاجئا حقا، لكن إجابته لا تحتمل حتى مجرد التفكير بها:

- «بالتأكيد يا سوزي»..

فصمتت برهة قبل أن تقول:

- «ماذا وجدت في مروان كي تقولي هذا؟»..

- «مروان شاب طيب القلب، مثقف وطموح، يحترم مشاعري ويحترم عقلي وكذلك جسدي»..

بدا الذهول ممتزجا بالسخرية في سؤالها:

- «ماذا تقصدين باحترامه لجسدك؟»..

تجاوزت سخريتها وأنا أجيب سؤالها الأخير قائلة:

- «أنا من طلبت من مروان أن ننتقل للعيش معا شريطة ألا نمارس الجنس لمدة شهر كامل كي يتأكد كل منا من مشاعره الحقيقية تجاه الآخر.. ومضى ما يزيد على أسبوعين وصرت أنا من تنتظر هذا اليوم بفارغ الصبر»..

سألتني «سيمون» وهي تتأمل ملامح وجهي بعناية كمن تبحث عن الإجابة قبل سماعها مني:

- «أتحبين مروان يا سيمون؟»..

- «أتعتبرين هذا سؤالا؟ أنا أعشق مروان يا سوزي، ولا أتخيل وجود رجل آخر في حياتي سواه»..

التقطت واحدا من أطباق العشاء وهي تسأل:

- «هل أنت واثقة من ذلك يا سيمون؟»..

- «ماذا بك يا سوزي؟ ألديك ما تقولينه لي؟»..

ارتبكت «سوزي» وهي تقول:
- «أنا؟ كلا، على الإطلاق. فقط أطمئن على سير العلاقة بينكما»..
ثم انسابت بالطبق الذي حملته نحو الصالة، حينها كان صوت «مروان» صائحا:
- «ألن نأكل يا سيمون؟ إن ميشيل يتضور جوعا هنا»..
فأجبته وأنا أتجه نحو الصالة حاملة الطعام بكلتا يدي:
- «دع ميشيل وشأنه؛ فليس هو من يتضور جوعا»..
- «هذا ما كنت أنوي قوله للتو»..
قالها «ميشيل» ضاحكا.
- «لا فارق بيني وبين ميشيل، ألسنا واحدا يا صديقي؟»..
ضحك «ميشيل» فتعالت أصوات ضحكاته وهو يقول:
- «بلى يا صديقي»..
ضحكت «سوزي» وهي تضع الطبق الأخير على المنضدة، في حين جلس الجميع إليها قبل أن يوجه «ميشيل» سؤاله لـ«ـمروان».
- «وكيف تسير الأمور مع روايتك الأولى يا مروان؟»..
- «لا أعرف يا ميشيل، الأفكار متزاحمة برأسي وأجد صعوبة في استخلاصها»..
- «وأين دور سيمون من تزاحم الأفكار هذا؟ آمل أن تكون سيمون هي من تشغل حيز تفكيرك إلى هذه الدرجة»..
فضحكتُ وأنا أقول:
- «هو لا يجرؤ حتى على التفكير في غيري».
قلتها وأنا أضحك ملوحة بيدي اليمنى الممسكة بسكين صغير.
انسابت يد «مروان» في رفق فأمسكت بيدي على حين غفلة مني ثم قبَّلها وهو يقول:
- «لن يتسع عقلي للتفكير بغيرك، وحتى إن حدث فقلبي سيمنعه»..
- «لا يمكنني احتمال هذه الرومانسية المفرطة».

قالها «ميشيل» وهو يضحك ضحكته التي لا تفارق وجهه بينما التفت «مروان» نحو «سوزي» وهو يقول:

- «ما بك يا سوزي؟ لماذا أنت صامتة هكذا؟»..

قاطعها «ميشيل» قبل أن تنطق بكلمة قائلا:

- «سوزي تريد أن تكون أُمًّا»..

فالتفتت نحوه «سوزي» في دهشة بدت واضحة على ملامحها، لكن يبدو أن «مروان» لم ينتبه لها فقد قال:

- «هذا شيء رائع، لا شيء أروع من الأمومة يا سوزي»..

ثم التفت نحو «ميشيل» وهو يقول:

- «آمل يا ميشيل ألا تكون عائقا أمام هذه الرغبة»..

فأجابه «ميشيل» نافيا:

- «أنا؟ كلا، كلا على الإطلاق».

ثم تابع الجميع إكمال وجبتهم في صمت خيَّم على المائدة لم يكن ليمنعني من مراقبة «سوزي» التي بدت مضطربة.

أنا أعرف «سوزي» جيدا، وأعرف أن لديها ما ترغب في قوله، وأدرك تماما أن الأمر لا يتعلق بمسألة إنجاب طفل من «ميشيل»، بل لا تتعلق أصلا بـ«ميشيل».. ترى ما الأمر يا صديقتي العزيزة؟

مروان

كنت منهمكا في العمل على الفصل الأول من الرواية حين لمحت «سيمون» وهي تجمع أوراقها من فوق المنضدة كي تخلد إلى النوم. كانت «سيمون» ترتدي قميصا أسود مزركشا فوق صدرها المضيء يعلو فوق الركبة بقليل ليكشف عن ساقيها المتلألئتين.

كانت «سيمون» - بالنسبة لي - قمة الجمال الفرنسي بإطلالته اليومية.

ابتسمت ابتسامة ماكرة وأنا أقول متنهدا:

- «باقٍ من الزمن يوم واحد»..

جمعت أوراقها وحملتها إلى غرفة نومها وهي تقول مخفية ضحكة خجولا:

- «لقد تجاوزت الثانية عشرة»..

فقفزت من فوق الأريكة مسرعا خلفها إلى حجرة نومها ثم وقفت على بابها أتأملها وهي تقف أمام فراشها مديرة ظهرها لي فاقتربت منها حتى صار ما يفصلني عن الالتصاق بظهرها شبرا أو ربما أقل.

مسحت على ذراعيها بأنامل السبابتين والوسطَيين، ثم نحيت شعرها البني عن كتفها اليمنى وأملت رأسي إلى الأمام قليلا فقبلتها في تلك البقعة بين كتفها وعنقها، فأمالت رأسها إلى الخلف في لذة شعرت بها في تلك القشعريرة التي انتابتها حينها.

التفتت نحوي وأنا ما زلت أقبِّلها فاحتضنتني بذراعيها عابثة بيدها في مؤخرة رأسي. رفعت عينيَّ إلى الأعلى قليلا لأتوه في بحور عينيها الساحرتين

فما شعرت إلا وشفتاي تعانقان شفتيها في صمت وشغف.
ثم أخذت أقبّل وجنتيها الخجولتين.. جبهتها.. أنفها الصغير وأذنيها.. أردت أن أقبل كل جزء منها.
لن أكون مبالغا إن قلت إن تلك اللحظات كانت وستظل الأسعد في حياتي.. فعلى الرغم من أن تلك كانت المرة الأولى التي يمارس فيها كل منا الجنس فإننا فعلناها كما لو كانت الأولى والأخيرة أيضا.
حين انتهينا نامت «سيمون» بين ذراعي عارية، فيما بقيت أنا مستيقظا أشاهد كيف تنام مخلوقة نورانية مثلها، أتأمل ملامح وجهها البريء، وجسدها البراق المضيء، ثم أسترجع تلك اللحظات التي مضت علينا متلاحمين، فأتمنى لو تستيقظ الآن فنعيد ما قمنا به لتونا.
لا أصدق كيف يمكن أن تشتاق لإنسان وهو نائم بين ذراعيك، لكن هذا هو ما أشعر به الآن، لا أستطيع إشباع شوقي إليكِ، وكيف السبيل إلى ذلك وهو شوق أعوام مضت بحثا عنك في أحلام لم تحتوِك؟
لا أعلم كيف أصفك يا «سيمون»، لكنني أحبك إن كنت لا تعلمين.

سيمون

لم أكن أعتقد في روعة ممارسة الجنس، بل كنت دائما ما أحتقر من يشغلون تفكيرهم بهذا الفعل المقزز، لكن يمكنك قول ما تشاء ما دمت لم تختبره بنفسك.

إن الأمر لا يتعلق برجل وامرأة يمارسان فعلا فطريا خُلقا لينفذاه في رتابة.. الأمر يكون مختلفا حين يجمع بين حبيبين يعشق كل منهما التراب الذي يشرف بأثر قدم الآخر عليه.

كل دقيقة تجمعني بـ«مروان» تعزز بداخلي الاعتقاد في كونه الرجل المثالي بالنسبة لي.. لقد خُلق من أجلي، كما خُلقت أنا من أجله.. لا أظن أني كنت لأسلم جسدي لشخص آخر غير «مروان»، أو أن أكون آمنة على روحي معه إلى هذه الدرجة التي أنا عليها الآن.

أنا أعلم أن لا أحد كامل، ولكل إنسان منا عيبه الذي يعلمه حتى إن اجتهد في إنكاره، وروعة الحب لا تكمن في أن تحب إنسانا، بل أن تظل تحبه حتى بعد علمك بعيوبه.

لا أقول هذا لكي أسرد عيوبا لاحظتها في «مروان»؛ فأنا ما زلت أرى «مروان» كاملا، لكن شيئا ما يتعلق بأفكار «مروان» الشاذة في بعض الأحيان كان يثير الحفيظة في نفسي.

كنت أضع رأسي على المنضدة محاطة بذراعي حين سمعت صوت «مروان» يشدو باسمي، وكم أحب اسمي حين يناديني به «مروان».

- «ما الخطب يا سيمون؟ هل أنت بخير؟»..

رفعت رأسي عن المنضدة، ثم التفت نحوه سعيدة بهذا الاهتمام الذي ألقاه من الشخص الذي أحبه، ورسمت على وجهي ابتسامة صحبت قولي:

- «نعم يا حبيبي.. أنا بخير.. لا تقلق»..

- «حسنا يا حبيبتي، لكني أرى أن ترتاحي قليلا حتى تتمكني غدا من الذهاب إلى عملك»..

- «ليس الآن يا حبيبي، سأنتهي خلال دقائق»..

- «حسنا يا حبيبتي»..

ثم عاد للتركيز في عمله مجددا قبل أن يعود ليقول:

- «نسيت أن أسألك عن موضوع كتابك!»..

أجبته وأنا أجول ببصري بين الأوراق التي انتهيت منها لتوي:

- «مستقبل الصراع العربي - الإسرائيلي»..

- «يبدو لي اختيارا جيدا»..

التفتُّ نحوه مبتسمة وأنا أقول:

- «أتمنى ذلك»..

ثم صمت برهة قبل أن يعود ليقول:

- «وكيف ترين مستقبل هذا الصراع؟»..

تركت ما كنت عاكفة على إنهائه واستدرت باتجاهه لأقول:

- «أنا أحاول تبني وجهة نظر مختلفة من خلال عرض علاقة الديكتاتوريات الحاكمة في الوطن العربي بالوضع الحالي بفلسطين، وأرى أن مستقبل فلسطين مرهون باشتعال نيران الثورة في عدد من الدول العربية المؤثرة التي بدأت شرارتها تظهر واضحة جلية»..

استرعى حديثي انتباه «مروان» فترك ما كان مشغولا به واستدار نحوي قائلا:

- «لم أفهم وجهة نظرك بعدُ!»..

تنهدت وأنا أحاول تبسيط وجهة نظري التي لم يستوعبها «مروان» بعد، ثم قلت:

- «باختصار، أريد أن أقول من خلال كتابي إن الديكتاتوريات الحاكمة في الوطن العربي قد قبضت ثمن تخاذلها عن استعادة الأرض الفلسطينية في مقابل حفظ العرش لها ولذريتها من بعدها ولن تسترد فلسطين حقوقها إلا بتغيير جذري لخريطة الحكم في الوطن العربي عن طريق ثورات جيل الشباب التي تلوح ملامحها في الأفق»..

بدت ملامح الدهشة وقد تشكلت على وجه «مروان» توحي بعدم توقعه صدور حديث مماثل مني أنا، ربما لأني يهودية، فكان يتوقع مني أن أتبنى وجهة نظر معاكسة!

- «أنت تدافعين من خلال كتابك عن حق فلسطين في إنهاء دولة إسرائيل، وهو ما يمنح الفلسطينيين الحق في سفك المزيد من دماء الإسرائيليين الأبرياء!»..

لم أكن أتوقع هذا الدفاع غير المبرر بالنسبة لي عن دولة مثل إسرائيل، يعتبرها العرب الذي يعد «مروان» واحدا منهم، عصابة تغتصب أجزاء من أراضيهم!

- «أي أبرياء؟ أنت تدافع عن جيش جرار يقتل المدنيين الفلسطينيين، ولا يجد حرجا في قتل الأطفال والنساء والشيوخ على مرأى ومسمع من العالم كله، ولِمَ لا؟ فستجتمع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة ثم تستخدم أمريكا حق الفيتو إن لزم الأمر!»..

- «هذه مبالغات يا سيمون، ثم إن أي دولة من حقها أن تحمي مواطنيها من الاعتداءات المتكررة عليهم.. أترين إن كنا نعيش في إسرائيل، كيف كنا لنحتمل العيش في هذا الذعر الدائم؟»..

فانفعلت فجأة وأنا أقول:

- «عن أي دولة تتحدث؟ تلك التي نشأت على جثث أصحاب الأرض في

١٩٤٨ بمقتضى الدعم الأوروبي؟»..

- «لماذا تدافعين عن الفلسطينيين إلى هذا الحد؟ الإسرائيليون أولى بدفاعك هذا، وهم بنو عقيدتك!»..

هذا ما انتظرت سماعه..

- «يمكنك أن تجيب عن السؤال ذاته، أما عن كونهم يهودا كما تزعم، فالله لم يأمر اليهود ولم يأمر غيرهم بسفك دماء الأبرياء»..

ثم ساد بيننا صمت طويل لا أعلم كيف بدأ، أنهاه هو بكلمات مقتضبة:

- «تصبحين على خير».

ميشيل

الدنيا عند «مروان» خط مستقيم، يبدأ من حيث وُلد وينتهي حيث يُدفن؛ لذا فإن أي منحنى قد يقابله فيحيد به عن هذا الخط المستقيم الذي رسمه لنفسه يعتبره هو فشلا يوازي إنهاء حياته.

راهن «مروان» على نجاح روايته الأولى بشكل مبالغ فيه؛ فهو في النهاية مجرد كاتب مبتدئ يشق طريقه. نعم لقد درس اللغة الفرنسية جيدا وفي بعض الأحيان أجده متفوقا عليَّ أنا الفرنسي في إتقان اللغة واستخداماتها، لكن كتابة الرواية لا تعتمد على اللغة فحسب.

فهو لم يمض بفرنسا أكثر من عام واحد، ليس كفيلا حتى بمعرفة الكثير عن طباع الفرنسيين وحياتهم اليومية كي تقدم لهم رواية تحاكيها!

حتى إن الشاب خالد، وهو واحد من المطربين العرب الذين حققوا نجاحا هنا في فرنسا، لم ينجح لكونه يغني بالفرنسية، بل لأنه استطاع أن يمزج تراثه العربي بصبغته الفرنسية.

لقد قرأت روايته قبل طبعها ودون علمه بعد أن رفض إطلاعي عليها في البداية.. بيد أن يأسه من إيجاد ناشر لها جعله غير متمسك بسريتها كما في السابق.

من خلال قراءتي لها وجدتها جيدة.. غير أنه أفرط في استخدام اللغة بشكل أثر كثيرا على الأحداث، وبدا غير مفهوم للقارئ العادي، لكني لم أملك الحق في إبداء الملاحظات حينها.

أجدها تذكرني برواية «عداء الطائرة الورقية» لمؤلفها الأفغاني خالد حسيني؛ فهي أكثر الروايات مبيعا وفقا لـ«نيويورك تايمز» الأمريكية.. وما يجمع بين هاتين الروايتين هو صعوبة اللغة المستخدمة فيهما، حتى إن رواية خالد تُدرس في بعض الجامعات.

لكن ما يفصل بينهما هو أن رواية خالد تدور أحداثها في أفغانستان، حيث المجتمع الذي عاش به وألفه فصار ملما به وقادرا على استخدامه بما يخدم روايته وهو خلاف ما فعل «مروان».

لا ألوم «مروان» ولا أعتبره فاشلا كما يعتقد هو.. هي مجرد محاولة جيدة بالنسبة لكاتب شاب في تجربته الأولى وبالنظر إلى التحديات التي تواجهه، لكن «مروان» لا يرى الأمور هكذا.

حين سألتني «سيمون» عن «مروان» وهي لم تره منذ أن نُشرت روايته، لم أجد ردا مناسبا، لكني اضطررت إلى قول الحقيقة أو ما استطعت منها؛ فصارحتها بشأن مبيعات الرواية المنخفضة التي أثرت بشكل سلبي على معنويات «مروان»، فقرر الانزواء بنفسه بعيدا عن العالم المحيط.

- «أين هو الآن يا ميشيل؟ أريد أن أراه وأطمئن عليه»..

سألتني «سيمون» بعينين دامعتين ونفس محطمة كزهرة فقدت رحيقها، فحاولت جاهدا إذهاب الأسى عن وجهها بما أعانتني كلماتي:

- «اطمئني يا «سيمون»، هو بخير. بيد أنه بحاجة إلى الاختلاء بنفسه قليلا»..

- «إلى متى؟»..

كان هذا سؤالا يصعب الإجابة عنه، فأطرقت قليلا قبل أن أجيبها في أسى:

- «لا أعلم يا سيمون، آمل ألا تطول فترة اختلائه بنفسه فأنا أيضا قلق عليه»..

لم يكن عليَّ مصارحتها بقلقي هذا؛ فأنا بهذا أضاعف من قلقها، وهو ما لاحظته بالفعل في قولها:

- «إذًا دلني على طريقه، يجب أن أراه»..

- «لا أستطيع يا سيمون، لقد وعدته»..

لم أكن أملك الحق في إخبارها بمحل إقامته في مرسيليا؛ فهو يرغب في الاختلاء بنفسه لفترة لم يحددها هو. كنت حريصا على إيجاد المكان الذي سيقيم فيه بنفسي كي أتمكن من الاطمئنان عليه بشكل أو بآخر.

فنصحته بالفندق الذي كنا نقيم به حين نزور مرسيليا معًا.. لا أحد يعلم شيئا بشأن زياراتنا لمرسيليا، ولا حتى «سوزي». فحين توجد المرأة تقل فرص الالتقاء بالأصدقاء؛ لذا فقد كنا نحاول استغلال مثل تلك الفرص قدر الإمكان.

مسكينة «سيمون» فهي تحب «مروان» أكثر من نفسها. ومسكين «مروان» أيضا فلطالما أراد النجاح كي يثبت لها ولنفسه أنه جدير بها.

مروان

لم تكن الخيارات مكفولة بعد أن أُغلقت أمامي كل الطرق. ضاع كل ما حلمت به من مجد وشهرة بعد أن فشلت روايتي الأولى.

لا أستطيع أن أنكر أن المجد والشهرة كانا جزءا من طموحاتي. أنا لست إلها حتى أنكر على نفسي هذا الحق، لكنهما لم يكونا الغاية، بل كانا مجرد وسيلة أثبت بها لـ«سيمون» ولنفسي أولا أنني جدير بها.

ما زلت ذلك الرجل الشرقي الذي أتى من دولة يتقدس فيها الرجل ويسمو درجات فوق المرأة. كل أخطائه مبررة، أما أخطاؤها فعار لا يمحوه إلا الدم. مجتمع يبرر للرجل كثرة علاقاته - غير الشرعية - بالنساء، في حين يحكم على المرأة بالفجر إن جمعتها صداقات مقننة بالرجال.

المرأة تطيع الرجل وإن بغى.. فتصير أَمَةً لوالدها وأخيها ثم زوجها.

لذا فإن أفكارا مصنوعة من الكتب لن تغير طباعا غُرست في النفس مع الزمن. كان من الصعب عليّ تقبل نجاح «سيمون» المتمثل في الانتشار الهائل لكتابها الأول، وما كتبته عنه الصحف الفرنسية في ظل فشلي المخجل.

لم أكن قادرا حتى على النظر في عينيها، فكلما ارتقيت ببصري رأيتها في منزلة أعلى، وهو ما لا تقبله فطرتي الشرقية.

آثرت الرحيل، فلم يعد لي مكان يسعني في فرنسا.

بين الطائرة التي حملتني إلى فرنسا وتلك التي ألقت بي في مصر رحلة قصيرة مذيلة بالفشل والخيبة. صار ذكر فرنسا بالنسبة لي مقرونا بالفشل. والآن

أعود إلى حيث أتيت.

لا أعتبر مصر بوابة للنجاح مفتوحة على مصراعيها أمام الطامحين، بل على العكس تماما؛ فأنا أعتبرها مقبرة لكل مبدع أو طموح.

إن أي مبدع في مصر يكون مخيرا بين الحسرة في البقاء والمجد في الهجرة.. قليلون من يختارون البقاء، فلا أحد يحب أن يدفن نفسه بيديه.

مسكينة «سيمون»، كلما فكرت فيما قد تعانيه من بعدي أجد قلبي يعتصر ألما. أعلم ألا ذنب لها في هذا، ولا ذنب لي أيضا. أتمنى أن تسامحني إن استطاعت.

الطريق إلى مصر طويل، خاصة إن كان محملا بالخيبة. لن أعود إلى بيت خالي الذي حزمت أمتعتي إلى فرنسا من بين جدرانه. بل سأعود إلى بيت أبي الذي تركته غاضبا بعد أن أنهيت عامي الأخير في كلية الآداب.

لم يكن بإمكاني احتمال تصرفات أبي الديكتاتورية. لم يكن بإمكاني احتمال سلطته غير المقيدة، خاصة بعد أن ماتت أمي السبب الوحيد لاحتمالي إياه في عامي الدراسي الأخير.

كان موت أمي بمثابة كلمة النهاية في علاقتي المنهارة بأبي. انتظرت على مضض حتى أنهيت امتحاناتي ثم استجبت لدعوات خالي المتكررة منذ وفاة أمي للإقامة معه وزوجته في القاهرة.

أمي هي من سعت لإتمام زواج خالي بزوجته تلك؛ فهي صديقة طفولتها وكاتمة أسرارها.

كانت زوجة خالي امرأة طيبة ودودا، تحبني كما لو كنت ابن بطنها؛ فلحكمة لا يعلمها إلا هو لم يكتب لها الله أن تُرزق بالأطفال، لكنها صبرت ورضيت واعتبرتني أنا وأخي كولديها، بل ربما أحبتنا أكثر من أي أولاد كانت لتنجبهم!

أخي؟ وأين أخي الآن؟ منذ أن رحل أخي وأنا لا أعلم عنه شيئا ولا أحد يعلم.

«المسافرين الكرام.. الرجاء ربط الأحزمة.. استعدادا للهبوط في مطار برج العرب».

وصلت إلى مطار برج العرب وأنهيت إجراءات الوصول الرتيبة، ثم بحثت عن سيارة للأجرة تقلني إلى منزل أبي في سموحة.

لا أعلم لِمَ اخترت العودة إلى منزل أبي، لكن الإنسان مهما كبر سيظل بحاجة إلى تلك اليدين اللتين أحاطتا به في الصغر في أثناء خطوه لخطواته الأولى.

ما زلت قلقا من تلك المواجهة التي تنتظرني، لا أعلم كيف سيستقبلني أبي بعد أن رحلت إلى فرنسا دون علمه. آمل أن يتخطى كل مشاكله معي كما فعلت أنا؛ فأنا بأشد الحاجة إلى الوجه الحاني من أبي لا الوجه الذي اعتدت منه رؤيته.

سيمون

الفترة الأخيرة لـ«مروان» كان متقلب المزاج بشكل واضح.. قليلا ما يفرح كثيرا ما يغضب.. كان ذلك جليا في فرحته العارمة بالانتهاء من روايته، ثم بدأت تخفت تلك الفرحة تدريجيا حتى تلاشت.

ثم عادت مجددا مع نشر روايته، حين عاد بأول نسخة مطبوعة منها.. يومها كان سعيدا للغاية، حتى إنه حملني وظل يدور بي حتى سقطنا معا على الفراش، فظل يقبلني بشكل هستيري. ثم غابت تلك الفرحة مجددا واستبدل بها حزنا مقيما، لا يغادر ملامح وجهه.

عرفت من «ميشيل» أن السبب هو المبيعات المنخفضة التي حققتها روايته، وهو بهذا يرى ضياع حلمه وماله معا.. غير أنني لا أرى الأمور كما يراها هو من منظوره الضيق؛ فهي مجرد محاولة، إن فشلت فقد أعلنت عن ضرورة استخدام طريق آخر للوصول، لا استحالة الوصول.

نعم، لقد أخطأ «مروان»، لكن ما الحياة إلا أخطاء.. إن لم نخطئ فما السبيل إلى التعلم؟

ما زلت غير قادرة على استيعاب الأمر، أكان ما يجمعنا هينا إلى هذه الدرجة يا «مروان»؟ لقد تركت كل شيء خلفك دون حتى التفاتة عابرة منك نادمة على ما داست قدماك من حب جمعنا في كنفه كل تلك المدة!

حاولت منعك لكنك لم تعبأ، إنها المرة الأولى التي تراني أبكي فيها ولا تحاول حتى مسح تلك القطرات المتساقطة على وجنتي! من أين استبدلت بقلبك

هذا القلب القاسي يا «مروان» كي أفعل مثلك فلا أبكيك؟
سأظل أذكر حوارنا الأخير هذا ما تبقى لي من العمر، حين عدت إليّ بعد أن انتظرتك طويلا، فما رأيت في عينيك لهفة اللقاء ولا ألم الفراق.
- «مروان! أين كنت كل تلك المدة؟ لقد قلقت عليك كثيرا يا حبيبي»..
تركني دون إجابة ومضى في طريقه نحو غرفة النوم، ففتح دولابها بعد أن فتح حقيبته وأخذ يملأها بأغراضه.
فقلت بلهجة ملؤها الخوف:
- «ماذا تفعل يا مروان؟»..
فأجابني بلهجة جافة دون أن يمنحني اهتمامه:
- «كما ترين يا سيمون، أعد حقائبي»..
- «ولِمَ هذا يا مروان؟ إلى أين أنت ذاهب؟»..
- «إلى مصر يا سيمون»..
فقلت في فزع يضاهي صدمتي:
- «مصر!»..
- «نعم يا سيمون»..
فقلت بلهجة مستعطفة وعينين توشكان على الانفجار:
- «وماذا عني يا مروان؟»..
فجأة توقف عمّا كان يفعله وصمت برهة وهو يتنهد ثم التفت نحوي وهو يقول:
- «ربما تسرعنا قليلا يا سيمون»..
- «ماذا تعني؟»..
- «الفروق بيننا كبيرة ومتعددة يا سيمون»..
- «وهل اكتشفت ذلك لتوِّك؟»..
- «كلنا نخطئ يا سيمون»..
كان العجز يكبل لساني الذي قاومه ليقول في أسى:

- «معك حق»..
ثم تركته يكمل جمع حقائبه بينما جلست أنا في الصالة متظاهرة بالقراءة وكلي أمل في أن يراجع موقفه، لكنه لم يفعل وانصرف مسرعا دون أن ينطق بكلمة واحدة.
لا أعلم يا «مروان» إن كنت أنت المخطئ أم أنا.. لكن كيف أكون المخطئة وقد وثقت بك؟ ربما هذا هو خطئي!
لكن يا «مروان» لم أكن لأثق برجل لولا أن قابلتك. أنت لست مثل كل الرجال، أو هكذا اعتقدت.. ظننتك مختلفا.
لم أشأ يوما إخبارك عن أبي، حتى إنك لا تعلم أن كونك مصريا قد أضاء قلبي وصرف عنه ظلمات كانت قد فُرضت عليه.
لقد كان أبي مصريا مثلك يا «مروان». كان صعيديا - كما يقال في مصر - يعمل مرشدا سياحيا في مدينة الأقصر حين التقى والدتي للمرة الأولى، أحبها، بل عشقها، وعشقته هي الأخرى. لم تمض أيام حتى كانا على نفس الطائرة المغادرة إلى فرنسا.
حينها لم يكن يلقي بالا لأي شيء سوى أن يكون إلى جوارها، لكن الأيام مضت في فرنسا وأنجباني إلى هذه الحياة.. ثم تبدلت الأحلام الوردية إلى واقع مرير يجعل الأمور بينهما تزداد سوءا يوما بعد يوم؛ فلم يكن لوالدي عمل يتكسب منه رزقه سوى عمله هذا الذي عمله في مصر، وهو ما يستحيل في فرنسا.
مضت السنوات وأبي يعجز اليوم تلو الآخر عن الارتقاء بوالدتي إلى الوضع المادي الذي اعتادت هي عليه.. هي لم تنفر من ذلك ولم تشكُ، لكن ذلك الإحساس المؤلم المسمى «الكرامة» لدى الرجل الشرقي قتل علاقة حب كانت لتروى في كتب الحب الوردية.
لم تجمعني بأبي سنوات طوال أو قصص أتذكرها لأرويها لأولادي، بل إنني حتى لا أكاد أتذكر شكله، لكني عرفته وعرفت - حين رأيتك - أنك مثله.

وعرفت أنك ستتركني أيضا مثلما فعل هو، لكني كنت أكذب نفسي كل يوم مائة مرة.

لا تعتبرها سذاجة مني، لكنها تلك الغشاوة الحمقاء التي يلقي بها شيطان الحب على أعيننا فلا نرى إلا ما يرغب هو في أن نراه.

مروان

كانت لحظة دخولي البيت القديم الشامخ على الرغم من عجزه كلحظة دخولي كهف ذكرياتي المظلم، الذي هربت منه لسنوات طوال شق على عقلي المريض أن يتركني لأهنأ ببُعدي عنها فأعادني إليها مرة أخرى.

طرقت الباب عدة مرات دون رد! هل ترك أبي البيت الذي لم يعرف يوما غيره، البيت الذي تربى هو به ثم تزوج وأنجب فربى أولاده به؟ لا يمكن حدوث ذلك.. إذًا، أهو بالداخل لا يريد أن يرى أحدا، أم هو مريض لا يقوى على الحراك؟ لكن أبي لم يمرض يوما في حياته! هكذا اعتقدنا جميعا، لعله مرض يوما ما دون أن يترك المرض أثرا عليه.

استغرق الأمر وهلة من التفكير الذي أفضى إلى حل.. كيف لي أن أنسى المفتاح القديم الذي ارتبط بميدالية مفاتيحي كل تلك السنوات؟ سيفتح بلا أدنى شك.

أخرجت الميدالية من جيبي ووضعت المفتاح في الباب ثم أدرته برفق فانفتح.

توقفت قليلا وكأن شيئا ما يخبرني بأنه ما زال بإمكاني أن أعود أدراجي، لكن.. لا أستطيع.. خطت قدمي اليمنى داخل الشقة لأول مرة منذ غادرتها وتقدمت قليلا إلى داخل الصالة الفسيحة، ناظرا حولي فإذا بالشقة كما هي، كل شيء كما تركته على حالته، بيد أن شيئا ما بها قد.. مات.

في تلك اللحظة سمعت صوتا عجوزا يباغتني من خلفي:

- «حمدا لله على سلامتك يا مروان»..

استدرت وهو يكمل بذات النبرة الأبوية:

- «لم أكن أصدق أباك - رحمه الله - حين كان يؤكد لي أنك سترجع يوما ما، كان قلبه هو ما يوحي له بذلك».

كان ذلك صوت عم «لبيب» - الجار والعم والشخص الوحيد الذي ربطتنا به صلة لا نعلم لها أصلا إلا أنه ذلك الجار الطيب الذي لا يمكن للحياة أن تستقيم من دونه - وهو يمنع دموعه قائلا: «كان يتمنى أن يراك، كان يتمنى أن تسامحه، كان يتمنى لو قضى معك ما تبقى من عمره ليعوضك عمَّا أضاعه هو من عمرك»..

لم أتمالك نفسي وانفجرت باكيا في حضن عم «لبيب»، الذي خرَّ باكيا هو الآخر، محاولا مع ذلك تهدئتي، لكن دون جدوى؛ فقد أتيت إلى هنا آملا في أن أجد ملاذي وسندي، لكنه تركني ورحل.

جذبني عم «لبيب» من يدي حتى شقته، ثم أجلسني إلى أريكة انزوت في جانب من صالتها وهو ينادي زوجته العجوز «ماريان» مبشرا إياها بعودتي، فأتت نحوي مهرولة ثم توقفت لما رأتني منهارا باكيا فترفقت في خطواتها، ومنعت بيدها الرقيقة دموعا كانت تأبى الانتظار ثم جذبتني للنهوض وضمتني بقوة إلى صدرها.

كم اشتقت إلى هذه الضمة الدافئة الباعثة على الطمأنينة، لم أعهدها منذ وفاة أمي - رحمها الله.

- «كفاك يا أم ريمون.. هيا، أسرعي بتحضير الطعام»..

- «لا يا عم لبيب، يجب أن أغادر الآن»..

التفت نحوي عم «لبيب» في ذهول، كمن خالجه الشك في قدرة أذنه العجوز على السمع بشكل جيد بعد كل هذه الأعوام من العمل الشاق، ثم قال:

- «تغادر؟! إلى أين؟».

- «إلى القاهرة، لم يعد لي أحد في الإسكندرية»..

فرد بتأثر شديد:
- «سامحك الله يا مروان، ألست عمك الذي رباك؟»..
فقلت في محاولة مني لتدارك الخطأ الذي نطقت به لتوي:
- «بلى يا عمي، لكن...»..
قاطعني عم «لبيب» قائلا:
- «لا حاجة لنا في (لكن)، ستظل معنا هنا لتؤنس وحدتنا»..
- «أرجوك يا عم لبيب»..
فخاطبني مستعطفا:
- «أنا من يرجوك يا ولدي، فأنت من تبقى لنا بعد وفاة ريمون ورحيل مازن»..
ضاعف عم «لبيب» من أحزاني بذكر أخي «مازن» وصديقه الوحيد «ريمون»، الذي توفاه الله في حادث اعتداء وقع على كنيسة القديسين قبل أعوام، وهو ما قلب حياة «مازن» رأسا على عقب.
كعادة كل من يمسه السوء في نفسه أو في أهله أو الأقربين، فحينها يتذكر وجود الله - عز وجل - فيتقرب منه، لكن يبدو أن الوضع مع «مازن» كان مختلفا بعض الشيء. فتقربه من الله قرَّبه أيضا من جماعة الإخوان المسلمين.
وتلك بداية قصة لا نعلم تفاصيلها إلى الآن.. على الأقل.
حينما انتهينا من تناول الطعام حدثت عم «لبيب» برغبتي في المكوث ببيت أبي، فحاول هو إثنائي عن ذلك متحججا برغبته في أن أكون موجودا معه هو وزوجته، لكني ألححت في طلبي هذا فاستجاب لي على أن أبيت معهما الليلة بشقتهما، حتى يتسنى لأم ريمون أن ترتب الشقة قبل الانتقال إليها.. حاولت شكره والاعتذار عن هذا الجزء، لكنه أصر فنزلت على رغبته.
قضيت ليلتي بشقة عم «لبيب» بين أحضان الذكريات، عادت بي ذكرياتي إلى أيام أبي وأمي، وما شهدته و«مازن» من شجارات كثيرة جمعت بينهما،

وما شهدته أنا و«مازن» أيضا من فرط العنف الذي لاقيناه من أبي، وما شهدناه معا من أيام حلوة برفقة «ريمون».
وفي صباح اليوم التالي تناول ثلاثتنا طعام الإفطار، ثم استأذنت عم «لبيب» في الذهاب إلى شقتي، فأذن لي على أن أعود لتناول طعام الغداء برفقتهما.
فتحت باب الشقة وفتحت معه بابا من الذكريات اللامتناهية؛ ففي كل ركن وفي كل قطعة أثاث، فوق كل سجادة، أسفل كل لمبة، لنا ذكريات.
هنا حيث اعتادت أمي أن تجلس لتقرأ القرآن، وهنا حيث اعتاد أبي أن يلعب الطاولة برفقة عم «لبيب» صديقه الوحيد، الذي لطالما تشاجر معه ثم عاد إليه كالطفل الصغير.
هناك جلست أنا و«مازن» إلى مائدة الطعام، نلعب لعبتنا المفضلة في ذلك الحين (بنك الحظ).. تلك أيام لن تعود.
- «مروان»..
كان ذلك صوت عم «لبيب» الذي وقف على باب الشقة حاملا بيده صندوقا صغيرا ينتظر الإذن بالدخول.
- «تفضل يا عم لبيب».
ثم اقتربت منه لأحمل عنه الصندوق وهو يقول:
- «منذ أن رحلت ووالدك لا يكف عن الشكوى من اشتياقه إليك؛ لذا فقد اقترحت عليه أن يضع شريطا بالكاسيت كلما اشتاق إليك فيتخيل نفسه يحادثك.. وقد اقتنع بالفكرة، وهذه كل شرائط الكاسيت التي سجلها بصوته لك.. كان يأمل في أن يأتي اليوم الذي تسمعها فيه كي تدرك مدى حبه لك»..
نظرت إلى العدد الهائل من شرائط الكاسيت ففرَّت مني دمعة هاربة أبت أن تظل حبيسة وأنا أتخيل مقدار اشتياق أبي لي ولحديثنا معا، وأنا الذي أبَيتُ أن أعود لكي أودعه قبل سفري!
همَّ عم «لبيب» بالانصراف، لكنه تدارك شيئا التفت ليقوله لي قبل أن

يخرج من الباب:
- «مروان يا بني»..
- «نعم يا عم لبيب»..
- «سامح أباك يا مروان.. سامحه كما سامحك هو يا بني»..
مسحت دموعي وقلت متصنعا ابتسامة لا تطاوعني:
- «سامحته.. سامحته يا عم لبيب»..
ثم انصرف عم «لبيب»، وحملت أنا الصندوق إلى المنضدة الصغيرة التي استقر عليها الكاسيت منذ أن اشتراه أبي، وأخرجت واحدا من تلك الشرائط، ووضعته بالكاسيت القديم، وجلست إلى المقعد المجاور للمنضدة ناظرا إلى الفراغ الذي تكشف عنه النافذة المقابلة حين بدأ الصوت الحبيس بالشريط في مغادرته:
- «مروان.. أعلم أنك لا تسمعني الآن، لكن سيأتي يوم تسمعني فيه عمَّا قريب بإذن الله. آمل أن أكون حيا حينها كي أراك للمرة الأخيرة..
سامحني يا بني.. فأنا لم أعد متمسكا بالحياة كما السابق.. لقد اشتقت إلى والدتك يا مروان، أعلم أنك ضقت ذرعا بي حين تركتنا للقاء ربها، لكن ما لا تعلمه أنت يا مروان هو أنني تمنيت لو لحقت بها في نفس الحفرة التي وُضعت بها، لكن.. إنها إرادة الله..
لكن، حدثني عن أخبارك وعن المدينة التي تسكن بها وعن الشارع الذي يحوي شقتك، أهو هادئ أم مزدحم ومزعج؟ أنا أعلم أنك لا تطيق الزحام ولا الضوضاء ولا تجيد العمل فيهما، حتى إنك كنت تتهرب من الذهاب لأقاربنا في العيد لهذا السبب..
أتذكر حين شكوت لي من الإزعاج الذي يسببه ذاك الرجل بائع الخضار على عربة الكارو. كان صراخه اليومي هذا يشتت تركيزك في أثناء مذاكرتك، يومها خرجت إليه وتشاجرت معه فكفَّ عن القدوم إلى هنا، وكذلك أنت! أتعلم؟ لقد تناولت الغداء اليوم بصحبة عمك لبيب. أعدت لنا زوجته حلة

من المحشي الذي تحبه، لطالما أحببت المحشي يا مروان. حتى إنني اعتدت على طهوه كلما ضايقتك فكثر تناولنا له، لكنك كنت تفهم الرسالة، وكنت تسامحني، فلِمَ لا تسامحني الآن يا مروان؟

كفاك هجرا يا مروان، فلم أعد أحتمل غيابك.. لم يبقَ لي إلا أيام قليلة أريد أن أقضيها برفقتك. أرجوك يا مروان أن تترك لي ما أرويه عنك لأمك حين ألقاها»..

العم لبيب

مسكين يا «مروان»، مسكين يا ولدي.. حُرمت من أخيك ثم أمك ثم أبيك.. صرت وحيدا في هذه الحياة وأنت ما زلت على أعتابها.. أنا أيضا اختبرت ألمك هذا حين رحل عني «ريمون» وهو في ريعان شبابه، لكني في النهاية عجوز. وما أعانني على المضي في ما تبقى من العمر إلا وجود «ماريان».

ما زلت أتذكر ذاك اليوم جيدا، حين سمعنا أصوات طلقات خارج الكنيسة، فهرولت إلى الخارج فزعا حين أدركت أنك لست بداخلها، ركضت وقد كان العمر يأبى لكن خوفي تخطاه، رأيتك ممددا على الأرض بين دمائك، كنت تلفظ أنفاسك الأخيرة وكنت أعلم، لكن عقلي كان يأبى التصديق.. وأنَّى له أن يصدق؟!

كنتَ مبتسما كما اعتدت أن تكون، لم تفزعك الدماء هذه المرة، لم تكن خائفا، كانت شجاعتك هي ما دفعتك لحماية المرأة المسنة بجسدك الأعزل. فاستقبلت الطلقات في صلابة، إنك حتى لم تصرخ أو تبكِ، لكم شعرت بالفخر حينها، ولكم شعرت بالأسى بعدها.

رفعت رأسك عن الأرض ووضعتها على فخذي وأنا أتأمل مشهد الدماء من حولك، فابتسمت وكفكفت بيدك الطاهرة دموع والدك العجوز، ثم اجتهدت في قول كلماتك الأخيرة:

- «لا تبكِ يا أبي، فما هذه الدنيا بمستقر، صلِّ من أجلي، واعفُ عمَّن قتلني، لا تدع غضبك يسيطر عليك فتحيد عن الحق»..

ثم اجتهد في إخراج كلماته المازحة:
- «قل لمازن ألا يتأخر هذه المرة»..
ثم تلوت صلاتك الأخيرة في صمت قبل أن تصعد روحك إلى أعالي السماء.
سامحني يا «ريمون»، فأنا أعلم أنني قد تأخرت عن موعد لقائنا معا، لكني يا ولدي لم أجد بدا من التمسك بتلك الحياة. فمن لأمك الآن سواي؟
إن أمك ما زالت تبكيك كل يوم يا «ريمون» بحرقة تفوق اليوم الذي سبقه..
أنا أيضا يؤلمني فراقك يا ولدي لكنها أمك، فلا سبيل للمقارنة.
أتدري يا «ريمون»؟ حين عاد «مروان» تذكرتك، بل وجدتك حيا.. شعرت بأنفاسك بعد أن أتعبك «مازن» من كثرة مطاردتك ليسترد حذاءه الذي خطفته من أمام المسجد أثناء انتظارك له حتى يفرغ من صلاته.
رأيتك ممددا على فراشك بغرفتك وإلى جوارك «مازن» الذي أصر على الإقامة معك إلى أن تعود للمشي على قدمك التي كُسرت في المباراة النهائية من الدورة الرمضانية لكرة القدم. ولا أعلم كيف تشارك أنت في الدورة الرمضانية، لكنه «مازن» الذي لا يرى فارقا.
رأيت وعاصرت كل لحظة عشناها معا.. كل خطوة خطوتها بيننا.. كل بسمة علت وجهك فأسعدتنا.. كل آه صرخت بها فأرعبتنا.. اشتقنا إليك يا «ريمون» يا ولدي.
«تفضل يا ربُّ نيِّح نفوسَهم جميعا في حضن آبائنا القديسين، إبراهيم وإسحاقَ ويعقوبَ. عُلهم في موضعِ خضرة على ماءِ الراحة في فردوسِ النعيمِ.. الموضع الذي هرب منه الحزنُ والكآبة والتنهدُ في نورِ قديسيك.. أقم أجسادهم في اليوم الذي رسمته كمواعيدِكَ الحقيقية غير الكاذبة.. هب لهم خيرات مواعيدك، ما لم تره عين ولم تسمع به أذنٌ، ولم يخطر على قلبِ بشرٍ.. ما أعددته يا الله لمحبي اسمِكَ القدوسِ»..
كانت تلك صلاة ماريان التي سمعتها حين فتحت باب غرفة «ريمون»؛ حيث اعتادت أن تحتمي بها كلما آلمها الاشتياق إليه.

- «لبيب!»..

التفتت «ماريان» نحوي وهي تقولها بعد أن انتبهت إلى وجودي.

- «أما زلتِ مستيقظة حتى الآن؟!»..

نهضت عن الأرض حيث كانت تجثو على ركبتيها في أثناء تلاوة صلاتها وجلست على فراش «ريمون» الدافئ بحضور روحه وهي تنظر إلى صورته المثبتة على الحائط وتقول في ألم:

- «لقد اشتقت إليه يا لبيب»..

اقتربت منها وجلست إلى جوارها وأنا أقول في ألم مشابه لألمها:

- «أعلم يا ماريان، وأنا أيضا اشتقت إليه»..

فانفجرت «ماريان» باكية فضممتها إلى صدري وأنا أقول بدموع حبيسة:

- «من يهلك نفسه من أجلي فهو يجدها.. صلي من أجله يا ماريان، صلي من أجله»..

مروان

عدت إلى منزل خالي الذي حضر لاصطحابي فور أن علم بنبأ عودتي من صديقه عم «لبيب» عبر الهاتف.
خالي محمد الذي يسكن منطقة السيدة زينب هو أستاذ جامعي بكلية العلوم، جامعة حلوان.. يعيش خالي برفقة زوجته الحاجة فاطمة - التي لم تنجب أطفالا - والتي اعتدت أن أناديها بأمي.
كانت فرحة زوجة خالي لرؤيتي تفوق فرحة «ماريان» والدة «ريمون»؛ فقد كان «مازن» بطبيعة الحال أقرب لأسرة عم «لبيب» مني، في حين كنت أنا أقرب إلى أسرة خالي منه. كانت «فاطمة» هي الأم الثانية لي، وما أسعد الإنسان الذي ينال كل ما تقدمه الأم لأولادها مضاعفا!
تناول ثلاثتنا الطعام الذي كنا بأشد الحاجة إليه بعد هذا السفر، ثم جلست بعدها برفقة خالي في مكتبته حين دخلت علينا زوجته حاملة صينية الشاي بين يديها، قبل أن تنصرف لتجهيز الغرفة التي تستقبلني كلما أتيت إلى هنا.
دار بيننا حديث افتقدناه، عن ذكريات طفولتي و«مازن» وعن والدي ووالدتي - رحمهما الله. استعدت مجددا إحساسي بدفء العائلة في ظل وجودي في بيتي الثاني.
- «حدثني عن فرنسا يا مروان، وكيف كانت الفترة التي قضيتها بها»..
قالها خالي وهو يضع أمامي كوبا من الشاي الذي حملته إلينا زوجته.
- «فرنسا بلد رائع، بلد يتسع لكل الثقافات بلا تمييز. أكثر ما أعجبني في

فرنسا هو توافر المكتبات في كل مكان وحرص الناس الدائم على القراءة، وهذا يفسر بالطبع درجة الثقافة والوعي التي عليها الشعب الفرنسي»..

كان قد أخرج سيجارة من علبة سجائره المحلية المعتادة وأشعل عودا من أعواد الثقاب وهو يقول:

- «كم كنت أتمنى أن تكون مصر مثل سائر الدول الأوروبية المتقدمة، أمثال فرنسا وألمانيا، لكن ولاة الأمور لا يريدون لها ذلك»..

- «ربما يعجزون عن ذلك!».

التقط كوب الشاي من أمامه ورشف رشفة قبل أن يمضي ليقول:

- «هناك فارق كبير بين الإرادة والعجز»..

ثم تابع:

- «أترى حين قررت مصر استضافة كأس العالم للشباب؟»..

سحب نفسا عميقا من سيجارته المغشوشة ثم زفره وهو يكمل:

- «لقد أنشأوا استادات جديدة خصيصا لهذا الغرض.. من أين أتت كل تلك الأموال فجأة؟ ولِمَ لم تُصرف على تجديد استادات مصر التي تعاني منذ سنوات، أو أنفقت على توفير ملاعب جيدة لمراكز الشباب التي لا يزورها الشباب، وهو ما يحطم قاعدة تعاقب الأجيال؟!»..

ضحكت رغما عني وأنا أقول في سخرية:

- «أنت تتحدث عن كرة القدم وكأنك واحد من هؤلاء الذين يملأون شاشات الفضائيات بثرثرتهم اليومية، لا أستاذا للعلوم بواحدة من كبريات جامعات مصر!»..

فرد بلهجة بائسة:

- «الأمر كله سيان، ما تجده في الرياضة تجده في العلوم تجده في الفن وغيرها من المجالات التي تراجعنا فيها بعد أن كنا نحن أصحاب الريادة»..

سحب عدة أنفاس متعاقبة من السيجارة التي أطفأها أخيرا بعد أن كاد يبتلع الفلتر، ثم تابع ليقول:

- «أعرف شابا من خيرة شباب هذا البلد، شرفني بإشرافي على رسالة الدكتوراه الخاصة به.. هذا الشاب يعمل من خلال رسالته على فكرة مشروع عبقري»..

رشف رشفة من كوبه الساخن قبل أن يكمل:

- «فكرة المشروع عبارة عن ملصقات لمس تثبَّت على أي سطح لتحوله إلى شاشة لمس»..

ثم استطرد:

- «هذه الفكرة يمكن أن تمكننا من جعل الجدران ملموسة للتحكم في الإضاءة أو الصنبور مثلا.. أو حتى يمكن أن نجعل الكتب ملموسة، فيصير بإمكان الكفيف الاستماع إلى الكتاب بمجرد لمسه، بل ويمكن أيضا جعل وجبات الطعام ملموسة، فيكون بإمكانك طلب وجبتك بمجرد الضغط على صورتها»..

أخذني الحماس وأنا أقول بانفعال:

- «هذه فكرة عبقرية»..

فلم أكن أتوقع أن أسمع مثل تلك الأفكار من شباب مصري يدرس بجامعاتنا المصرية هذه..

- «نعم، هي كذلك، لكنها ستظل بلا قيمة ما دامت حبيسة داخل جدران هذا الوطن.. وما يؤلمني هو محاولاتي الدائمة لإقناعه بالبقاء هنا، على الرغم من علمي بمصيره المنتظر»..

ثم أكمل وهو يعود إلى الخلف ليستند بظهره إلى المقعد:

- «اسمه أحمد الدسوقي، احفظ هذا الاسم جيدا.. سيأتي إلى هنا في المساء، ربما تكون فرصة جيدة لكما للتعارف»..

- «هذا شيء يشرفني بكل تأكيد»..

قطع حبل الصمت المتصل بيننا عودة الحاجة «فاطمة» التي انتهت لتوها من تجهيز الغرفة:

- «هيا يا مروان، يجب أن ترتاح الآن»..

فنهضت متثاقلا وأنا أقول في كسل:

- «نعم، أنا في حاجة إلى الراحة بالفعل.. أراكما في المساء»..

ثم اتجهت إلى غرفتي التي اعتادت أن تستقبلني بين جدرانها، والتي كانت تحرص زوجة خالي على تنظيفها وتجهيزها لاستقبالي في أي وقت.

أحمد الدسوقي

كنت متسمرا أمام كابينة «ميناتل» وأنا أنظر إلى الكارت في تردد وحيرة، قبل أن أحسم قراري فأدخلت الكارت في الماكينة وكتبت الرقم المحفور في ذاكرتي، ثم انتظرت حتى أسمع الصوت الذي انتظره وأخشاه:

- «السلام عليكم!».

كان هذا صوت والدي المسن ناظر المدرسة الابتدائية في بيلا - كفر الشيخ، الذي يعولني أنا وإخوتي الثلاثة الصغار.

- «وعليكم السلام»..

سألني بنبرة أبوية حنونة:

- «كيف حالك يا ولدي؟»..

- «أنا بخير يا أبي، كيف حالك وحال أمي وإخوتي الصغار؟»..

- «بخير يا ولدي والحمد لله، لا ينقصنا سوى وجودك معنا»..

- «قريبا إن شاء الله يا أبي»..

ثم ساد الصمت بيننا للحظات قبل أن يسأل أبي:

- «ما بك يا ولدي؟»..

- «لا شيء يا أبي، أنا بخير والحمد لله»..

- «يا ولدي قل ما بك ولا تخجل، أتريد أن أرسل لك المال؟»..

صمتُّ برهة أحاول حسم قراري، هل أطلب منه المال وأنا أعلم أن مصاريف إخوتي الصغار قد استنفدت كل أمواله؟! لا يمكنني أن أكون أنانيا إلى هذه

الدرجة، عليَّ أن أرفق بحاله وأن أتحامل على نفسي قليلا.
- «لا يا أبي أنا بخير ولديَّ ما يكفيني والحمد لله»..
ثم تحججت برغبتي في إنهاء المكالمة قائلا:
- «يجب أن أذهب الآن يا أبي وسأعاود الاتصال بك غدا بإذن الله»..
صمت والدي لوهلة أدرك فيها أنه غير قادر على تلبية حاجتي من المال إن كنت طلبته منه، فقال:
- «حسنا يا ولدي، كما تشاء»..
كان لا بد لهذه المكالمة أن تنتهي، لم أكن معتادا على الكذب.. كنت بحاجة إلى المال، لكن خجلي حال بيني وبين طلبه.
كنت أتقاضى راتبا من الكلية عن عملي معيدا بها، لكنه راتب هزيل لا يكفي لسد احتياجاتي من إيجار لسكني وطعام وكتب وأوراق علمية وخلافه.
أكملت طريقي نحو منزل الدكتور محمد، أستاذي المشرف على رسالتي؛ حيث كنت على موعد معه لإطلاعه على الجديد في رسالتي.
استقبلني الدكتور محمد كعادته في مكتبته وسط حفاوة وترحيب كبيرين من زوجته كما عوَّدتني.
كم أحب هذا الرجل وزوجته البشوش، وأنتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم من كل أسبوع الذي يجمعني بهما في منزلهما، فأكاد أجزم أنهما يعدانني ابنا لهما من فرط الحب والاهتمام اللذين ألاقيهما في منزلهما.
لكن هذه المرة كانت مختلفة؛ فقد كان بالمنزل وافد جديد.. شاب في مثل سني أو يكبرني قليلا ويدعى «مروان».
أعجبتني شخصية «مروان» المثقفة الواعية، وطموحه الذي أوصله إلى فرنسا للحصول على الدكتوراه من هناك على الرغم من أنه لم يذكر شيئا عن حصوله عليها!
لاحظت من حديثه أن خاله الدكتور محمد كان قد أطلعه على فكرة مشروعي الذي أنوي التقدم به فور حصولي على الدكتوراه إلى الحكومة

المصرية لكي يستفيد منه هذا الوطن.

لكن «مروان» لم ينتبه كثيرا إلى حديثي عن المشروع على الرغم من انبهاره به، مقارنة بذلك الاهتمام البالغ بحديثي عن منطقة «الزلزال» في حلوان!

كنت قد أنهيت عامي الرابع والأخير من كلية العلوم، ولم يعد من حقي الإقامة بالمدينة الجامعية التي كنت قد قضيت بها أعوامي الأربعة، فعرض عليَّ أحد الأصدقاء - وكان يصغرني بعام واحد - الإقامة برفقته وصديقيه في شقة استأجروها في منطقة «الزلزال»، التي تفصلها عن الجامعة عشر دقائق فقط من السير على الأقدام.

بدا لي اقتراحا مناسبا حينها، ولأن صديقي هذا - على الرغم من فشله الدراسي - فإنه شاب طيب القلب ومحل ثقة مني. فأعددت حقائبي وانتقلت إلى هناك.

- «الزلزال! ما هذا الاسم العجيب؟»..

كان هذا «مروان» متسائلا عن سر تسميتها بهذا الاسم بعد أن تخلى عن فنجان قهوته جلبا لمزيد من الانتباه.

بُنيت هذه المنطقة لاستقبال الناجين من حادث زلزال ١٩٩٢؛ لذا فهم خليط من المجتمع المصري لا يجمع بينهم شيء سوى أنهم شركاء في المحنة، شركاء في محل الإقامة.

عندما عاينت الشقة وجدتها جيدة؛ فهي بسيطة، لكنها تضم جميع رفاهيات الحياة التي لا تجدها في المدينة الجامعية، لكن هدوء المنطقة الذي لاحظته حين خطوت خطواتي الأولى بها سرعان ما تبدد ليكشف وراءه غابة موحشة، يقطن بها تجار المخدرات والمدمنون وفتيات الليل.. بيئة فاسدة لا قدَّر الله لها البقاء.

لم أستطع إكمال حياتي في هذا الجو الملبد بالمفاسد، فتركتها واتجهت للإقامة بشقتي الحالية في حلوان برفقة صديقي الذي يكمل هو الآخر دراساته العليا بكلية الصيدلة، بعد أن كره المعيشة ضيفا على خالته وزوجها وأولادها.

ترى ما سر هذا الاهتمام البالغ من «مروان» بحديثي عن «الزلزال»؟ أعترف بأن ما يجمعني بـ«مروان» لا يسمح لي بالقلق بشأنه، لكني أجد نفسي مع ذلك مشفقا عليه من الخوض في هذا الوحل.

مروان

كنت قد قررت العودة إلى القراءة، فمهما تبدلت الظروف والأحوال ستظل القراءة دائما هي ملاذي الأخير ومرشدي في طريق الحياة الموحش.

لكن في مصر، القراءة رفاهية، تختص بها طبقة من المثقفين المعزولين فعليا عن المجتمع؛ فهم لا يرون المجتمع إلا من بين صفحات الكتب، فلا يرون منه إلا الجهل والتخلف والانحطاط الفكري، فيسطرون بأقلامهم مقالات وكتبا تحكي مأساة حياتهم - وهم العظماء - بين هؤلاء الهمج الرعاع.

والحقيقة أن المجتمع المصري لا يشبه المجتمع الفرنسي، لكن ما بال المقارن لا يبحث عن أسباب هذا الفارق بين المجتمعين؟

عدت بعد رحلة من البحث في المكتبات ومحلات بيع الكتب مكللا بالخيبة؛ ففي مصر ليس من السهل أبدا أن تحصل على كتاب باللغة الفرنسية. ولا عجب؛ فالمكتبات ودور النشر والتوزيع تظل حكرا على القاهرة والإسكندرية دونًا عن باقي محافظات مصر.. ربما حين تغزو القراءة أرجاء المحروسة قد أجد كتبا بلغات أخرى.

لم يكن ينقصني في هذا اليوم سوى اصطدامي بتلك الفتاة المجنونة التي كانت تعدو هابطة فوق الدرج القديم غير عابئة بمن يشقون طريقهم نحو الأعلى.

إنها حتى لم تكترث لاصطدامها بي واكتفت بكلمة ألقتها دون التفاتة منها: «آسفة»!

لم أكن، حتى، مستوعبا الصدمة التي سببتها لي، إن الصدمة لا تكمن في اصطدامها بي بقوة أسقطت من بين يدي الكتب التي تمكنت من الحصول عليها بصعوبة، بل في عدم اهتمامها بتقديم اعتذار لائق.

انفعلت بشدة وأنا أقول ببصر يلاحقها نحو مدخل البيت القديم: «همجية»!

فتوقفت فجأة والتفتت نحوي لتقول وهي تجز على أسنانها:

- «يجب أن تحمد الله لكوني على عجلة من أمري»..

ثم أكملت طريقها بنفس السرعة التي هبطت بها الدرج!

متى بدأوا في إنتاج مثل تلك الفتاة؟ ومن عساها أن تكون يا ترى؟ كم أفتقد فرنسا حين أرى الحال الذي وصلت إليه فتيات مصر.

تجاوزت انفعالي وعبرت فوق غضبي نحو شقة خالي.. وفي المساء تابعت الصدفة إبهاري بطرقات على باب الشقة كشفت عمَّن خلفها لأجدها أمامي للمرة الثانية في اليوم ذاته!

- «ماذا أتى بكِ إلى هنا؟ أتلاحقينني إذًا كي تثأري مني أيتها الهمجية؟»..

- «من أنت أيها الأحمق كي أشغل بالي بملاحقتك؟ وما الذي أتى بك إلى شقة الدكتور محمد؟»..

كنت أهم بالرد حين تسرب إلى مسامعنا صوت زوجة خالي ليقطع شوطا من الشجار كان ليستمر حتى الصباح.

- «فريدة! أهلا بكِ يا عزيزتي.. تفضلي إلى الداخل»..

قالتها بفرحة تملأ عليها وجهها.

كانت الصدمة أقوى من تحملي، فأحسست بفقدان النطق لبرهة، كانت الشيطانة الصغيرة مشغولة حينها بالتحديق بي بعينين غاضبتين.

- «أنا آسفة على إزعاجك يا طنط فاطمة، لكن والدتي بعثتني بهذا الطبق إليك، وتأمل، وأنا كذلك، أن ينال إعجابك»..

فردت زوجة خالي ملاطفة:

- «شكرا يا بنيتي، لا بد أن هذه الحلوى الجميلة من صنع يديك الجميلتين»..

- «نعم يا طنط فاطمة، شكرا على هذه المجاملة الرقيقة»..
قالتها وهي تلتفت بنظرها نحوي في غضب مكتوم ينتظر الإشارة بالانطلاق.
- «أنتِ لم تتعرفي بعدُ إلى مروان!»..
فالتفتت «فريدة» نحوي بعينين غاضبتين وهي تقول:
- «لا»..
تدخلت أنا حينها وقلت مقاطعا وأنا أمد يدي مصافحا:
- «أنا مروان ابن شقيقة الدكتور محمد»..
ولمعت في عيني نظرة الفاتح المنتصر الذي أحرج لتوِّه الملك المهزوم بقوة موقفه.
نظرت «فريدة» إلى يدي ثم مدت يدها مصافحة إياي وهي تقول في لهجة تحدٍّ:
- «وأنا فريدة»..
ثم استردت يدها واستأذنت زوجة خالي في الانصراف.
أتاحت لي اللحظات التي فصلت بين انصرافها وإغلاق زوجة خالي لباب الشقة الفرصة لرؤيتها وهي تدخل الشقة المقابلة وتغلق خلفها بابها!
- «من هذه يا أمي؟»..
فأجابتني وهي تتجه نحو مائدة الطعام حاملة الطبق الذي أحضرته «فريدة»:
- «هذه فريدة ابنة جارتنا الحاجة مريم»..
- «ومن فريدة؟ ومن الحاجة مريم؟ ولماذا تسكنان بشقة الأستاذ رضا؟»..
وضعت زوجة خالي الطبق الذي حملته إلى السفرة قبل أن تقول:
- «الحاجة مريم وابنتها كانتا تسكنان بالطابق الأخير، وكان ذلك مرهقا للحاجة مريم، وحين قرر الحاج رضا السفر للإقامة مع ابنه كريم في أمريكا استأذنتاه في مبادلة شقته، ولم يمانع الرجل فهو لن يعود على أي حال ثم إن البيت كله ملك له بالأساس»..

ثم لمعت في عينيها نظرة خبث وهي تقول:

- «أراك مهتما بفريدة!»..

قالت جملتها الأخيرة في مكر نسائي يعلن عن نفسه بقوة قبل أن تكمل طريقها نحو مطبخها.

أنا معجب بعنق «فريدة»، وكم أتمنى ملامسته بيدي، خاصة إن كان بيدي الأخرى سكين باردة.

فريدة

أتيت إلى هذه الحياة وحيدة، انشق عني بطن لم يحمل غيري، لكن الوحدة التي وُلدت يوم ولدتُّ أنا تزداد سوءا. رضيت بغياب الأب، لكن مَن لي إن غربت شمس أمي؟

عيون الناس لا ترى سوى تلك الأسطح التي نطليها بالطلاء الذي نريده.. لا أحد يهتم بالبحث عنك بداخلك؛ فهو يكتفي بهذا الطلاء الرقيق ليرسم لك صورة في مخيلته تكون أبعد ما تكون عن واقعك الذي تخفيه أسفل هذا الطلاء.

أنا تلك الفتاة التي أراد لها والدها أن تكون قادرة على شق طريقها بمفردها وسط هذه الحياة الخشنة. ربما أراد لنفسه الزهو بإنجاب الولد كعادة الرجال في مجتمعنا الشرقي هذا، لكن الله خيَّب ظنه ورزقه بفتاة ترهق باله وتفكيره، وتعذب نفسه الضعيفة بالقلق عليها.

فقرر أن يربي بداخل تلك الفتاة رجلا يهابه الناس ويعملون له ألف حساب.. علَّمني كيف أدافع عن نفسي فدربني على استخدام السلاح إلى أن أحببت تلك الرياضة وواظبت على تمارينها.. علَّمني كيف أفرض حدودا بيني وبين كل من حولي فصرت منعزلة في قوقعتي التي اخترتها لنفسي.

أنا لست رجلا، ولست بتلك القوة التي أدَّعيها، بل إنسانة ضعيفة دُفعت إلى الحياة دفعا.. وحيدة تسير في طريقها، فوق ظهري أحمال لست أعلمها.. أخطو الخطوة تلو الأخرى فترهقني أحمالي فأسقط ثم أنهض، ضعيفة..

لكني لست عاجزة، فما يحول بيني وبين بلوغ غايتي إلا موتي الذي لا أخشاه ولا أتمناه أيضا.

لقد كبرت أمي، وصرت أخشى ذلك اليوم الذي أوقظها فيه كعادتي كل صباح فتأبى روحها.. حتى إن كنت أدَّعي القوة، فإن أمرا مماثلا إن قدر الله حدوثه كفيل بأن يكسرني إلى الأبد.. فلن تصمد «فريدة» القوية في مواجهة «فريدة» الضعيفة الوحيدة التي لا تساوي جناح بعوضة في غياب والدتها.

- «فريدة! أما زلتِ مستيقظة حتى الآن؟!»..

كان هذا هو صوت أمي الحاني التي لا تنام حتى تطمئن عليَّ.

عدَّلت من وضع أوراقي على المكتب الصغير وأنا أجيبها في توتر:

- «أجل يا أمي، ما زال أمامي بعض الوقت قبل أن أنتهي من حل هذه التمارين التي يتعين علي تسليمها غدا».

انزعجت أمي كعادتها كلما أطلت السهر إشفاقا عليَّ، لكنها استسلمت للأمر الواقع الذي فرضته دراستي للهندسة.

- «حسنا يا بنيتي. هل ترغبين في أن أعد لك شيئا تتناولينه؟»..

ابتسمت ابتسامة الرضا التي ترسمها كل أم حنون مثل أمي على وجه أولادها وأنا أقول:

- «شكرا يا أمي، لكني أوشكت على الانتهاء»..

فتراجعت وهي تغلق باب الغرفة قائلة:

- «حسنا يا ابنتي»..

ثم تسرب إلى مسامعي صوت دعائها الذي لا ينقطع أبدا.

آمل أن يطيل الله في عمر أمي، فأنا أخشى مصيري الذي ينتظرني بعدها.

مروان

بينما كنت خارجا من باب الشقة بنيَّة الذهاب إلى المكتبة كعادتي، إذا بي أرى «فريدة» تخرج هي الأخرى من شقتها.. فور أن لمحت عيناها طيفي خارجا قررت الإسراع في النزول، لكن شيئا ما بداخلي دفعني لأن أستوقفها مناديا إياها:

- «آنسة فريدة»..

توقفت بعد أن خطت قدماها درجتين تجاه الأسفل واستدارت في ضيق وهي تقول:

- «نعم؟»..

تجاوزت عن هذا الضيق الذي تظهره دون مبرر، فكنت قد قررت إنهاء هذا الخلاف حتى إن لم أكن الطرف المخطئ فيه.

- «أردت أن أعتذر إليك عمَّا بدر مني، وأرجو أن تكون بداية صفحة جديدة»..

- «حسنا»..

قالتها وانصرفت دون أدنى اهتمام بالشخص الذي تركته متسمرا خلفها، لا يكاد يستوعب فظاظة هذا الكائن الملقب بالأنثى دون وجه حق!

لا بأس، فقد أرضيت ضميري، ولم أكن راغبا في تكوين صداقة مع تلك المخلوقة الفظة.

أغلقت باب الشقة وهبطت الدرج ثم تمشيت، كعادتي، في الطريق الذي

يفصلني عن مترو الأنفاق، وفي أثناء ذلك رأيت شخصا غريب الأطوار يضايق «فريدة» ويتحرش بها لفظيا، فأخذتني الحمية وقررت أن أدافع عنها بحكم الجيرة السوداء التي تجمعني بها.

اندفعت نحو ذلك الشخص ووبَّخته، فانفعل في جرأة مستغربة، بل بالأحرى وقاحة، وأخذ يدفعني في صدري قبل أن يسدد إليَّ لكمة في وجهي، فسقطت عني سنة طارت فهيَّأت لبصري الذي تبعها أن يعثر على «فريدة» التي كانت تخطو خطواتها نحو باب محطة المترو متجاهلة كل ما دار بسببها.

بعد تدخل المارة انفض الشجار الذي دار من طرف واحد وأكمل كل واحد منا طريقه. وعندما دخلت محطة المترو وجدت «فريدة» تسير أمامي في عجلة كعادتها، وعندما انتبهت إليَّ التفتت نحوي في غضب وهي تقول:

- «أنت تتبعني إذًا!»..

غلى الدم في عروقي وأنا أقول:

- «أيتها الحمقاء، لقد ضُربت للتوِّ من أجلك!»..

فصاحت بصوت مرتفع تغلب على صوت عجلات القطار المحتكة بالقضيب وهي تقول:

- «من تنعت بالحمقاء أيها الأحمق؟»..

ثم دوى صوت اصطدام كف يدها بوجهي ليعلن للجميع أن المعركة قد بدأت لتوِّها، فاجتمع من حولي الناس وقد بدا عليهم غضب مصطنع، يريدون الدفاع عن الفتاة الرقيقة من هذا المتحرش المراهق، أين كان كل هؤلاء حين تحرش بها أحدهم قبل قليل وعلى بعد خطوات من هنا؟

أخذ كل دوره في تسديد اللكمات والضربات المتلاحقة، حتى غطت وجهي الدماء وسقطت مغشيا عليَّ فوق رصيف المحطة.

أفقت داخل غرفتي في شقة خالي مكسوا بالضمادات وإلى جواري زوجة خالي وطبيب يجمع أدواته هامًّا بالانصراف.

خرجت زوجة خالي بصحبة الطبيب وسمعت خطوات خجولا تخطو نحو

الغرفة برفق، فالتفت نحو الباب لأجد الشيطانة بوجهها الدامي قد أتت لتحتفل بما حققته من انتصار على خصمها الضعيف.
تقدمت إلى الداخل خطوة أو خطوتين، ثم توقفت ونظرها مثبت نحو الأرض متصنعة خجلا لا أظنه عرف الطريق إليها من قبل وهي تقول:
- «أنا آسفة على ما حدث لك»..
فلما لم تجد ردا أكملت بعد أن ارتقت بنظرها نحوي:
- «أنا أعلم أني مخطئة، لكن...»..
ثم صمتت بعد أن خذلتها الكلمات التي كانت تستعد للدفاع بها عن نفسها، فحتى الكلمات لا تملك تلك الوقاحة التي تبحث عنها.
تجاهلتها تماما حتى دخلت زوجة خالي متسائلة:
- «من فعل هذا بك يا مروان؟ أخبريني أنتِ يا فريدة»..
صمتت «فريدة» وهي تنظر نحو الأرض في خجل بدا حقيقيا هذه المرة، فتدخلت أنا قائلا:
- «لقد سقطت عن الرصيف، ولحسن حظي فقد كانت فريدة حاضرة بالمحطة حينها، واستطاعت بمساعدة أهل الخير في المحطة نقلي إلى هنا لإسعافي»..
التفتت زوجة خالي نحو «فريدة» في سعادة وهي تقول:
- «لا أعرف كيف أشكرك على هذا يا ابنتي»..
ثم التفتت نحوي متسائلة:
- «لكن هذه الجروح ليست جروحا تشبه تلك التي تقصدها، هذه التي في وجهك آثار اعتداء بالضرب.. أو هكذا أظن»..
اجتهدت في نفي الأمر بشكل تام، فلم أكن أريد إفساد تلك العلاقة الودية التي تجمع بين أسرتينا، ولهذا السبب كنت قد اعتذرت لـ«فريدة» صباح اليوم ذاته.. فأنا لم أكن لأسامح نفسي إن فسدت العلاقة بين زوجة خالي وجارتها حتى إن لم أكن الطرف المذنب.

أحست «فريدة» بحرج بالغ سببه حديثي المدافع عنها، فاستأذنت في الانصراف فأذنت لها زوجة خالي بعد أن شكرتها مجددا ثم انصرفت مسرعة، وكأنها وُلدت على هذه الحالة!

فريدة

كم أنا حقيرة لأفعل هذا برجل لم يسئ إليَّ، بل على العكس لقد دافع عني! لكني لم أكن بحاجة لمن يدافع عني، أيظن أن كوني امرأة يجعلني بحاجة إليه كرجل ليفرض حمايته وسلطته أيضا؟

كفاك جدالا يا «فريدة»، فأنت تعلمين أنه لم يخطئ حين تدخل لصد الأذى عنك.

لكنه نعتني بالحمقاء!

وماذا كنت تنتظرين منه وقد تجاهلت موقفه النبيل تجاهك، بل واتهمتِه بملاحقتك أيضا! ثم تسببت في الاعتداء عليه للمرة الثانية، وكاد يلقى ربه فيشكو إليه ظلمك له في حياته الدنيا؟

حسنا. أنا أعلم أني مخطئة، لكني اعتذرت له، وتجاهل هو اعتذاري هذا. إذًا فقد أرحتُ ضميري.

من تخدعين يا «فريدة»؟ كان ذلك أكثر الردود رقة وسماحة، فبعد كل ما لاقاه منك لم يعاتبك حتى!

حسنا.. سأذهب إليه غدا كي أطمئن عليه وأعتذر إليه مجددا.. فبغض النظر عن شجارنا الأول فقد اعتذر إليَّ ثم صد عني أذى ذلك المتحرش.

أظنه يستحق مني معاملة أفضل، وأرى أن أعوِّضه عمَّا تعرض إليه.. أرى أن أصحبه في نزهة؛ فهو بلا شك يحتاجها الآن كما ذكر الطبيب.

لذا ففي صباح اليوم التالي كنت أتمشى برفقة «مروان» في حديقة الأزهر

بعد أن التأمت جروحه بشكل جزئي حين قال كاسرا حاجز الصمت الشاهق بيننا:

- «أما زلتِ تدرسين بالجامعة يا فريدة؟»..

أحسست بالزهو وأنا أجيب عن ذاك السؤال الذي لطالما طربت لسماعه لحبي في ترديد إجابته:

- «بلى، أنا طالبة في الفرقة الرابعة بكلية الهندسة»..

أفخر بدراستي بكلية الهندسة، وأتشوق لليوم الذي سأشق فيه مستقبلي كمهندسة.

- «هذا شيء رائع، الفتيات دائما ما يتألقن في العمارة والديكور»..

توقفت فجأة، ثم التفت نحوه في ذهول وأنا أقول:

- «ومن قال إني أدرس العمارة؟ كما أن قسم الديكور واحد من أقسام كلية الفنون الجميلة، لا الهندسة!»..

- «حسنا لقد كان مجرد تخمين»..

- «حسنا، وعلى العموم أنا طالبة بقسم الهندسة الميكانيكية»..

- «الهندسة الميكانيكية!»..

قالها في دهشة أثارت حفيظتي.

- «نعم، ما الداعي لهذه الدهشة الواضحة على وجهك؟»..

- «لست مندهشا، لكن ألا يعد هذا القسم أنسب للرجال نظرا لصعوبة عمل الفتيات فيه؟»..

استشطت غضبا، فقد جُرحت في كرامتي الأنثوية لتوِّي.

- «هذه نظرة عنصرية، أنت تختزل المرأة في بضعة أعمال وتمنعها أعمالا أخرى بحجة أنها ناقصة لا يمكن لها أن تتساوى بالرجل!»..

اضطرب «مروان» فجأة وهو يدافع عن نفسه قائلا:

- «أنا لم أقصد ذلك!»..

- «بل تقصد ذلك، فكلكم سواء»..

- «ومن نحن؟»..
- «أنتم معشر الرجال»..
انفعل وهو يقول:
- «أنت معقدة إذًا!»..
- «بل أنتم من تخنقون النساء بعقد من صنعكم، وتضعون أمراضكم حائلا بيننا وبين حقنا في العيش كراما متساوين»..
- «ما هذا الذي تقولينه؟ أنا لم أقل شيئا من هذا الكلام الفارغ!»..
أحسست بالغضب يتملكني وأنا أقول بانفعال:
- «كلامي ليس كلاما فارغا، انتبه لألفاظك»..
- «أنتِ تفتعلين شجارا إذًا!»..
- «ومن أنت كي أفتعل شجارا معك؟»..
- «حسنا.. حسنا»..
ثم تركني ومضى في طريقه متجاهلا وجودي وصيحاتي المنادية بالتوقف:
- «انتظر، لا تُدِر ظهرك لي، أنا لم أُنهِ كلامي بعد»..
لم يكترث لشيء من ذلك وأكمل طريقه فاستشاط غضبي وصحت منفعلة:
- «ليس من الذوق أن تتجاهلني بهذه الطريقة أيها الأحمق»..
استمر في تجاهلي وليته ما فعل، فقد استفز غدة الجنون بداخلي ففاض بي الكيل وصرخت بكل قوتي صرخة حسبتها من قوتها أسقطت الأوراق عن الأشجار:
- «النجدة!! هذا الحقير تحرَّش بي»..
لا أعلم من أين أتى كل هؤلاء القوم بهذا الشكل المفاجئ، لكني لمحت أحدهم وقد بدا متحمسا يركض تجاهه ثم سدد إلى وجهه لكمة قوية، فسقط على الأرض مغشيا عليه.

مروان

لا أفهم لِمَ تعاملني هذه المتوحشة بهذه الطريقة، أنا لم أحاول حتى الإساءة إليها.. لقد تسببت في ضربي مرتين متتاليتين! قد تقتلني في الثالثة إن استمر الحال على هذا المنوال.

أهكذا يكون جزائي بعد أن قبلت دعوتها للتمشية برفقتها في حديقة الأزهر كنوع من أنواع الاعتذار الضمني؟ لقد نفيت عنها أي صلة لها بما حدث لي للمرة الثانية، وآمل ألا تحاول الاعتذار إليَّ هذه المرة.

كنت أتأمل وجهي في المرآة الصغيرة بالغرفة وقد بدا عليه التحسن حين سمعت طرقات باب الغرفة.. كانت تلك الطرقات الرقيقة بمثابة البصمة المميزة لزوجة خالي.

اقتربت زوجة خالي مني مشفقة على وجهي الذي لم يعد صالحا للاستخدام الآدمي وهي تقول:

- «لقد تحسن وجهك كثيرا»..

كثيرا ما تكذب الأمهات للتهوين على أبنائهن؛ فقد تكذب الأم على ابنها مدعية أنه الأفضل على الإطلاق حين لا يعتقد أحد ذلك على الإطلاق أيضا، كذب لذيذ لكنه كذب مع ذلك.

- «الحمد لله»..

- «ما زلت لا أفهم، كيف يمكن لحادث سيارة أن يفعل هذا بوجهك؟!»..

ألم يكن بإمكاني اختلاق رواية أفضل من تلك؟ لكن ماذا كنت لأفعل وقد

سبقتني العبقرية «فريدة» بسرد هذه الرواية العقيم لزوجة خالي قبل أن أعود أنا إلى الوعي مرة أخرى؟!

- «حين صدمتني قفزت بي عاليا قبل أن أسقط على وجهي»..

ما هذا الهراء الذي أتفوه به؟ آمل ألا تسألني تكراره مرة أخرى.

- «الحمد لله على كل حال.. لقد أتيت لإخبارك أن جارتنا الحاجة مريم قد دعتنا اليوم لتناول الغداء برفقتها وابنتها فريدة، ويجب أن نكون هناك بعد ساعة تقريبا»..

كان هذا الخبر هو بالفعل ما ينقصني.. ما ذنبي أنا لأجبر على رؤية تلك المخلوقة مجددا بحكم دعوة عائلية روتينية، لا ناقة لي فيها ولا جمل، أم أن تلك محاولة أخرى للاعتذار الضمني؟ ولم لا وقد مضى على الحادثة أسبوع كامل لم يظهر فيه لـ«فريدة» أثر ولم تحاول حتى زيارتي أو الاعتذار إليَّ؟ أشم رائحتها في تلك الدعوة المريبة.. ولن أكون قادرا على الاصطدام بهذا الوحش مجددا.. فلا أرغب في أن أسقط من شرفة شقتهما أو أن تطعنني بسكين في صدري أو أن تهشم رأسي بأسطوانة الغاز.

- «أنا آسف يا أمي، لن أتمكن من تلبية دعوتها الكريمة.. فأنا ما زلت بحاجة للراحة»..

- «لا يمكننا الاعتذار يا مروان، هذا يعد إهانة لها.. كما أن فريدة تصر على قدومك»..

وكأن هذا شيء قد يبعث السرور في نفسي! على الأقل فقد تأكدت ظنوني وصرت واثقا من نهايتي.

ذهبت بصحبة زوجة خالي، فقد اعتاد خالي العودة متأخرا خلال الأيام الماضية نظرا لانشغاله الشديد.

كنت مجبرا على قبول هذه الدعوة فلم أكن لأضع زوجة خالي في موقف محرج أمام جارتها التي صارت صديقتها الوحيدة.

استقبلتنا والدة «فريدة» وقد انتهت من تحضير المائدة فأجلستنا إليها ثم

جلست برفقتنا، وسرعان ما تبعتها «فريدة» في خجل لم أعتده منها.
جلست «فريدة» بعد تبادل السلامات الشفهية الخجول واكتفت بتثبيت بصرها بطبقها، ثم علت ببصرها نحوي فجأة وهي تقول بنبرة ودود:
- «تناول طعامك يا مروان، أنت بحاجة إلى الغذاء الجيد»..
ولا أدري ما مصدر هذا الحنان المفاجئ؟
ثم نهضت وهي تقول في اهتمام:
- «تناول طبق الملوخية هذا سيفيدك»..
ثم حملت الطبق بيديها نحوي وهي تقول متفاخرة:
- «هذه الملوخية من صنع يدي»..
فجأة أفلت الطبق من بين يديها فسقط على فخذي فقفزت من مكاني في فزع، بينما تسمرت هي في مكانها واقفة تضع يدها على فمها من شدة الصدمة.
عرضت عليَّ والدتها أن تصحبني إلى الحمام لتنظيف ملابسي لكني استأذنتها في العودة إلى شقة خالي لتبديلها فذلك كان أفضل، خاصة أنني كنت أنوي الهرب، فقد بدأت «فريدة» تضع لمساتها الساحرة وأخشى منها ما هو أسوأ.
لكن شيئا ما لفت انتباهي وأنا أتجه نحو باب شقتهما.. كان هذا الشيء هو دمعة سقطت على وجنة «فريدة» حسبت حينها أن لها صوتا تسلسل إلى أذنيَّ حين لامست الأرض.. كانت تلك مبالغة جمة لكن هذا هو حقا ما شعرت به حينها!
دخلت شقة خالي وقد تبدلت نيتي مع ملابسي، فقررت العودة إلى شقة «فريدة» مرة أخرى.
حين طرقت الباب فتحته لي والدتها لكني لمحت «فريدة» وقد خرجت من حجرتها وتسمرت أمام بابها وهي لا تصدق أنني قد عدت مجددا.. كانت آثار الدموع التي بللت وجنتيها واضحة على وجهها على الرغم من اجتهادها الواضح في إخفائها.

اقتربت من المائدة ثم التفت نحو «فريدة» وأنا أقول قبل أن أجلس إليها:
- «تعالي يا فريدة كي تتناولي طعامك فأنت بحاجة إلى الغذاء الجيد»..
ضحكت «فريدة» ضحكة مكتومة؛ فـ«فريدة» لا تحب إظهار مشاعرها أيا ما كانت.. ثم اقتربت من المائدة في خجل وجلست بعد أن اطمأنت إلى جلوسي إليها.
أردت تجاوز الموقف فالتقطت طبقا آخر من الملوخية غير الذي سقط، وتذوقتها فأثنيت على مهارتها الواضحة في الطهو. ولم أكن أحاول بذلك مجاملتها، فإن الملوخية كانت رائعة بالفعل، وهو الأمر الذي يثير بنفسي تساؤلات عدة!
كيف لفتاة مثلها وهي المتحررة الرافضة لقهر الرجل أن تكون مميزة إلى هذا الحد في أعمال منزلية مثل الطهو؟!
شخصيا لا أجد تعارضا بين الأمرين، لكن في مجتمعنا هذا المرأة تحسبه تعارضا؛ فهي تظن أن الأعمال المنزلية تحط من قدرها وتعود بها إلى زمن الجواري حسبما تزعم.. وهو ما يتنافى مع الحقيقة بلا أدنى شك.
كانت نظرات «فريدة» المختلسة نحوي تنم عن حيرة لم يكن من الصعب عليَّ قراءتها.. لعلها كانت تتساءل كيف آذت شخصا إلى هذه الدرجة، ولعلها تتساءل أيضا كيف صارت لطيفة إلى هذه الدرجة.
وتلك تساؤلات مشروعة، غير أن ما بداخل «فريدة» أكبر من ذلك.. أو هكذا أزعم.

فريدة

انتهينا من تناول الطعام الذي لم يكن من السهل تناوله بسبب الضحك المتكرر، فجارتنا الحاجة «فاطمة» لم تتوقف عن السخرية من شكل «مروان» حين سقط عليه طبق الملوخية، وهو ما كاد يقتل والدتي ضحكا.
لا يمكنني الآن أن أنفي أني ولأول مرة في حياتي استمتعت بتناول وجبة طعام بصحبة أشخاص غرباء، لكنهم لم يعودوا غرباء بعدها.
حين أنهى الجميع طعامه حملت والدتي وصديقتها الأطباق إلى المطبخ فيما انفردت أنا بـ«مروان» في شرفة منزلنا. أردت أن أعتذر له عن كثير لم يكن قط متعمدا لكنه حدث.
كان «مروان» شارد الذهن هائما ببصره في الشارع مع المارة حين قلت أنا محاولة إرضاء ضميري الذي أرهقني تأنيبه لي:
- «مروان، أنا آسفة على ما حدث وأقسم لك إنني لم أكن أقصد حدوثه»..
فرد ساخرا:
- «عن أي حادث تتحدثين بالتحديد؟»..
كان سؤالا مخجلا بحق، وكان له كل الحق في استغلال الموقف لصالحه بما في ذلك إهانتي وإيذائي معنويا..
- «عن كل حادث مررت به منذ أن التقينا أول مرة يا مروان»..
ابتسم «مروان» وهو يقول:
- «قبل نصف ساعة من الآن كنت لأحطم وجهك بمطرقة ضخمة أو ألقيك

من الشرفة بينما أشاهدك تسقطين مستمتعا بذلك»..
كانت علامات الدهشة الممزوجة بالغضب قد رُسمت على وجهي فيما ضحك هو قبل أن يكمل:
- «لكن، لم أعد أرغب في ذلك.. فحين سالت دموعك بعد أن أفسد حادث سقوط الملوخية مخططك للاعتذار أدركت مدى ضعفك وطيبة قلبك ومشاعرك المرهفة التي تحتمي خلف سور حديدي شاهق الارتفاع، وهو ما يتجلى في فظاظتك المصطنعة وحدتك الكاذبة.. لهذا فأنا لست غاضبا منك يا فريدة»..
سرعان ما تبدل الفزع إلى الدهشة والغضب إلى بلاهة، فقد كانت تلك الكلمات الغريبة هي أفضل مجاملة سمعتها خلال الأعوام الأخيرة من عمري!
لم أجد ردا يناسب ما قيل، فلم أكن أعلم إن كان يتحتم عليَّ التصديق أم النفي!
صمتُّ أنا بينما تابع هو:
- «أتعلمين ما ينقصك يا فريدة؟»..
- «كلا!»..
- «الحب.. الحب هو ما ينقصك يا فريدة؛ فالحب قادر على أن ينزعك من عالمك الذي فرضتِه من حولك.. هل سبق لك أن اختبرت الحب من قبل يا فريدة؟»..
- «كلا»..
- «ولِمَ؟»..
التفتُّ نحو الشارع المزدحم حتى تهت بين نواصيه وأنا أقول:
- «الحب خيانة»..
- «أنت تصفين الشيء بنقيضه يا فريدة! لا تجتمع الخيانة مع الحب»..
- «وما الذي يجعلك واثقا إلى هذه الدرجة؟ قل لي أنت كم مرة اختبرت

الحب؟»
- «ربما مرتين!»..
- «إن كنت أحببت الأولى فكيف أحببت الثانية؟ ألا يعد ذلك خيانة؟»..
- «ربما لم يكن حبي الأول صادقا»..
- «ولا تحسب هذا خيانة!»..
- «لا أتفق معك في هذا الرأي»..
- «لم أتوقع منك أن تتفق معي، فأنت رجل»..
- «وما الضرر في كوني رجلا؟»..
- «الرجولة في مجتمعنا هذا جريمة»..
- «ولم تضعين البيض كله في سلة واحدة؟ لم تنظرين إلى جميع الرجال على أنهم سواء؟»..
- «لأن هذه هي الحقيقة، جميعكم سواء.. ألا تشتركون في تلك النظرة الدونية للمرأة؟ ألا يجعلكم هذا سواء؟»..
- «ليس حقيقيا...»..
كان لدى «مروان» الكثير، لكن والدتي قطعت حديثنا حين اقتحمت الشرفة وطلبت منا القدوم إلى الصالة لتناول الشاي بصحبتها وجارتها فأنهينا حديثنا القصير وتبعناها.
لكن ظل بداخل «مروان» الكثير ليقوله وربما يتسنى لي سماعه في وقت لاحق.

مروان

كان دليلي، المعلم حلمي الجزار، يسير أمامي مسرع الخطى، غير مكترث بهذا السائح الهائم ببصره فيما يحيط به. لم يكن «الدسوقي» دقيقا في حديثه عن «الزلزال»؛ فـ«الزلزال» رواية أعظم من تلك التي صاغها في اختزال.

مملكة غامضة لا تفشي أسرارها للغرباء، لم ولن يعلم عنها أحد الكثير إلا ساكنوها.

لم يكن المعلم حلمي، وهو واحد من سكانها، سعيدا بالرياح التي حملتني إلى «الزلزال». وكأني كنت أتوقع منه أن يرقص احتفالا بقدومي!

صحبني المعلم حلمي بعد سلام جاف إلى قلب «الزلزال» التي لم أرَ منها عند نزولي من التاكسي إلا بضعة مبانٍ من الخلف.. حين دار بي حول تلك المباني افترش أمامنا طريق طويل خمَّنت حينها أن نهاية «الزلزال» يرسمها خط نهايته، كما لاحظت أن أمام شقتي مساحة فارغة لم أدرك سببا محددا لها ولم أهتم كذلك.

صحبني المعلم حلمي على هذا الطريق؛ حيث مررنا بامرأة عجوز تستقر بزاوية من الطريق رمقتني بنظرات طويلة أخافتني وحاولت تجنبها، لم نستغرق كثيرا، فقد كانت الشقة بنهاية أول بلوك عن يميني. سبقني المعلم حلمي المتعالي الذي لم يأبه حتى إن كنت أسير إلى جواره أم لا، بينما كنت أنا هائما في تفاصيل البيئة الجديدة حين أطلت بوجهها الملائكي من شرفتها

بالدور الأرضي في البلوك المقابل لذاك الذي ينبغي بي أن أسكنه.
جذبتني ملامحها الصافية ووجهها المشرق كشمس الصباح العائدة بعد ليالٍ ممطرة.. رمقتني بنظرة سريعة وهي تلتفت عائدة إلى الداخل، وحينها عدت أنا أيضا إلى الواقع، لأبحث عن المعلم حلمي الذي لمحته يدخل من آخر مداخل البلوك فأسرعت الخطى نحوه، فإذا برجل في سن الأربعين يشوبه الغموض كذلك الذي يظهر في الأفلام ليقول «المعلم زلطة يخبرك بأن كلمة السر قد تغيرت».
استوقفني الرجل الغامض قائلا:
- «إن كنت تحمل شيئا فمن الأفضل لك أن تلقيه الآن، فالشرطة بالداخل».
نظرت إليه وعلامات الدهشة قد نُقشت على وجهي بشكل يصعب معه تبديلها، لكني انتبهت إلى نداء المعلم حلمي الذي أطل من باب الشقة ليستدعيني إلى الداخل.
تجاوزت الرجل الغامض دون تبادل أطراف الحديث، ودخلت الشقة لكي أراها قبل إتمام التعاقد وكانت جيدة بالفعل تماما كما وُصفت لي؛ فهي تشتمل على غرفتين تضم إحداهما سريرين ودولابا كبيرا، والأخرى تضم مائدة تكفي لستة أفراد ومطبخا ضيقا قليلا وحماما مماثلا وصالة بمساحة جيدة وبها أنتريه يبدو بحالة جيدة وتلفاز ليس آخر موديل ولا الذي يسبقه، لكنه بحالة جيدة ومعه «ريسيفر» وثلاجة وغسالة، لم أتبين إن كانت تعمل أم لا لكن الشقة في مجملها تفي بالغرض.
طلب مني المعلم حلمي صورة بطاقتي الشخصية واتفقنا على أن يأتي بالعقد بعد توقيع صاحبة الشقة عليه لأوقع أنا بدوري عليه، لكنه أعاد سؤالي مجددا:
- «هل ستسكن هنا بمفردك؟».
فأجبته للمرة الثانية:
- «نعم».

انصرف المعلم حلمي بعد أن تسلم مني إيجار الشهر الأول مقدما.
قبل أن آتي إلى هنا كان خالي قد سألني:
- «ماذا تخطط لمستقبلك يا مروان؟»..
- «حسنا، أريد أن أمزج بين حبي للغة الفرنسية وولعي بالكتابة.. لقد خضت التجربة مسبقا ولم يحالفني التوفيق، لكني منذ عودتي إلى مصر عكفت على مراجعة تجربتي الأولى وتقييمها، وخلصت إلى نتائج ستفيدني في تجربتي الثانية بإذن الله»..
- «إذًا فأنت عازم على إكمال الطريق الذي بدأته في فرنسا!»..
- «بالضبط»..
- «وهذا يعني أنك قد تعود إلى فرنسا مجددا!»..
- «نعم، سأعود دون شك، لكن ليس الآن، عليَّ أن أعود إليها قويا لا مثلما عدت منها»..
- «لكن ماذا عن الدكتوراه التي تخليت عنها يا ولدي؟»..
- «الأمر بالنسبة لي يتجاوز شهادات سينتهي بها المصير معلقة على جدران منزلي.. أنا أطمح إلى ما هو أكبر من ذلك»..
- «وما أولى خطواتك إذًا؟»..
- «سأنتقل إلى شقة جديدة»..
لا أنكر أن تلك الجملة أزعجت خالي كثيرا، وزاد من إزعاجه إصراري على عدم البوح بمحل سكني الجديد، لكن ما هدَّأ من غضبه قليلا هو وعدي له بألا تنقطع صلتي بشقته، وبرهنت على ذلك بترك بضعة من متعلقاتي بها.
وها أنا أتخذ أولى خطواتي بقدومي إلى «الزلزال».

الدكتور محمد

لطالما أحببت الوقوف بين يدي طلابي، أعطيهم من علمي فيطلبون المزيد، لكن كان هذا في وقت مضى، فقد تغير كل شيء الآن.. لم يعد الطلاب يرغبون في العلم، كل شيء تغير حين تغيرت مكانة العلماء.

صار قدوة هؤلاء عددا من المطربين ولاعبي كرة القدم؛ فهؤلاء من يجنون الأموال والشهرة، وأما العلماء فلا يجنون إلا الاضطهاد أو التجاهل في أفضل الأحوال.

وماذا جنيت أنت يا دكتور محمد؟ لا شيء.

سافرت كما سافر غيري إلى الولايات المتحدة الأمريكية وعملت هناك، شأني في ذلك شأن الكثيرين غيري، لكني لم أحتمل البقاء هناك مثلهم، كنت أشعر بالخيانة في كل لحظة أقضيها بعيدا عن وطني الذي هو أولى بعلمي هذا.

وماذا كانت النتيجة؟ هؤلاء صنعوا لأنفسهم أسماء براقة وحصدوا الجوائز وغمرتهم الأموال، وأما أنا فقد حصدت الخيبة التي تكسو جدران هذا المستنقع المسمى «جامعة».

أي جامعة هذه بالأساس؟ هذا الشيء الملقب بالجامعة لا يستحق هذا الشرف الممزوج بالاسم. هناك في الولايات المتحدة رأيت الجامعات، فأما هذه فلا تشبهها على الإطلاق.. هذه مجرد قبور يُدفن فيها كل فاسد وفاشل، لا يخرج منها من هو جدير بالعمل من أجل هذا الوطن.. وعن أي وطن أتحدث أصلا؟

ولهذا فإن أي ترتيب عالمي للجامعات لن يشمل جامعاتنا العريقة، التي في نظرهم لا تعد جامعات.

في بعض الأحيان ألوم نفسي على ما فعلت بعلمي الذي ألقيت به داخل أدراج مكاتبهم بين أوراق يغطيها التراب، لكن ما كان لي أن أفعل غير ذلك، كان هذا واجبي نحو وطني حتى إن لم يكن يعبأ.

لكني أجد عزائي في ذاك الشاب العبقري الملقب بـ«الدسوقي». يذكرني بنفسي حين كنت في مثل عمره. الأفكار البناءة والحماس المتقد، لا أريد له أن يلاقي المصير ذاته الذي لاقيته أنا.. سأعمل بكل جهد على الحول دون ذلك مهما كلفني الأمر.

- «دكتور محمد»..

كان ذلك صوته وقد أخذ لنفسه مكانا عند الباب ينتظر إشارة مني بالدخول في خجله المعهود.. كان به شيء ما مختلف هذه المرة، حين جلس أحسست بحماسه وقد خفت، بهجته المعتادة وقد انطفأ نورها.

- «ماذا بك يا أحمد؟ هل هناك خطب ما بك؟»..

ازداد توتر «أحمد» وبدأ العرق يسيل على وجهه بغزارة وهو يقول:

- «لا شيء يا دكتور، لكن...»..

فقلت بلهجة أبوية اعتدت أن أخاطبه بها منذ أن بدأنا معًا العمل على رسالته ومشروعه العظيم ذاك:

- «تكلم يا بني»..

صمت قليلا ثم جفف عرقه وقال وهو ينظر نحو الأرض كمن يترجاها كي تبتلعه:

- «لقد تلقيت اليوم عرضا من جامعة كاليفورنيا»..

أمعنت النظر في ملامح وجهه وأنا أقول متسائلا:

- «وما الجديد؟ ليست المرة الأولى التي تتلقى فيها عروضا للدراسة وتنفيذ مشروعك!»..

صمت «أحمد» خجلا ففهمت ما يدور برأسه فانتزعت سيجارة من علبة سجائري المحلية وأشعلتها وقلت وأنا أنفث غضبي مع دخانها:
- «أنت تفكر في قبول العرض هذه المرة، أليس كذلك؟»..
صمت مجددا قبل أن يقول في شجاعة اجتهد في استحضارها في لهجته:
- «كلا يا دكتور.. لقد قبلت بالفعل».
صُعقت لما سمعت فأطفأت سيجارتي ونهضت من مكاني لا أجد كلاما أقوله قبل أن ينهض هو الآخر خارجا من مكتبي وهو يقول:
- «أنا آسف يا دكتور محمد»..
بِمَ سينفعني أسفك الآن يا «أحمد»؟ لست نادما على دعمك أو العمل معك، لكني فقط كنت آمل أن يصادفك حظ أفضل في وطنك لا خارجه.. كنت آمل في أن تكون مختلفا في بلد متخلف لا يعرف قيمتك، وربما لن يعرفها.

سيمون

كان الحضور كثيفا كعادته حين يكون الحدث هو حفل توقيع كتاب جديد للكاتبة الشهيرة سيمون جوزيف، ولا أعلم متى صرت مشهورة إلى هذه الدرجة.

كانت تلك المرة مختلفة، ليس في عدد الحضور أو التنظيم الجيد للحفل، لكن في مشاعري أنا التي لم تكن سعيدة هذه المرة.. كانت عيناي تجولان القاعة بين الحضور تبحث عمن غاب فطال غيابه، لعله يأتي.

لاحظت «سوزي» الحالة التي أنا عليها فالتفتت نحوي وهي تقول:

- «لن يأتي يا سيمون، لقد رحل مروان ولن يعود.. متى تتوقفين عن التفكير فيه كما توقف هو؟»..

- «لا أستطيع يا سوزي.. لا يمكنني اقتلاع قلبي بيدي!»..

- «كفاك يا سيمون من هذا الهراء...»..

قطع حديث «سوزي» الذي تكرره بشكل يومي منذ رحيل «مروان» صوت جهوري قدمني إلى الحاضرين كواحدة من أفضل كتاب فرنسا المستشرقين!

كان ذلك الصوت ملكا للكاتب الكبير جيل كبيل - الباحث في الشئون الإسلامية بمعهد العلوم السياسية بباريس الذي حضر خصيصا لمشاركتي الاحتفال بتوقيع كتابي الثاني.

ألقيت كلمة قصيرة عن الشرق حملت نظرتي لهذا المجتمع المظلوم كليا؛ فالجميع في أوروبا وأمريكا ينظرون إلى العرب على أنهم مجموعة من

البدو الإرهابيين، متجاهلين بذلك التقدم الذي حققته بعض الدول والعقول العربية التي صنعت الحضارة الأوروبية التي نتفاخر نحن بها الآن.
وبعد توقيعات كثيرة حملت شكر الكاتبة وتمنياتها بالتوفيق وقراءة ممتعة انصرفت بصحبة «سوزي» التي ظفرت أخيرا بفرصة لتكرار حديثها المعتاد عن «مروان».
فور أن ركبنا السيارة انتهزت «سوزي» فرصة اختلائها بي وأعادت تشغيل أسطوانة «مروان»:
- «متى ستعودين إلى صوابك يا سيمون؟»..
قالتها وهي تستشيط غضبا قبل أن تشعل سيجارتها..
- «أتظنين أن الأمر بهذه السهولة التي تتحدثين بها؟ هل سأقف أمام المرآة فأقول: اخرج من عقلي يا مروان فيخرج مروان وينتهي كل شيء!»..
زاد غضب «سوزي» وهي تقول:
- «توقفي عن الـ...»..
ثم حالت إغماءة خفيفة بينها وبين إكمال جملتها، لم تفقد وعيها، لكنه مجرد دوار بسيط أثار قلقي وحفيظتي وأصررت على أثره أن نذهب إلى المستشفى لفحصها.
حضر الطبيب الذي فحص «سوزي» وطلب مني الحديث على انفراد لإطلاعي على تفاصيل حالتها الصحية، وهو ما أثار القلق في نفسي.. فأنا لم أكن أتوقع أن يستدعي الأمر الحديث على انفراد!
لكني حاولت طمأنة نفسي وتمالك أعصابي حين بدأ الطبيب حديثه الهادئ:
- «ما طبيعة علاقتك بـ... ثم نظر في أوراقه قبل أن يكمل.. سوزي؟»..
- «سوزي صديقتي، بل هي شقيقتي»..
- «حسنا»..
ترك أوراقه وأطرق برأسه إلى الأسفل قليلا قبل أن يقول:
- «للأسف، صديقتك سوزي مصابة بسرطان الرئة»..

لم أكن لأسمع في حياتي ما هو أسوأ من ذلك.. حتى رحيل «مروان» عني لم يكن بهذا السوء.

نهضت من مكاني مفزوعة فحاول الطبيب التهدئة من روعي، لكني انفجرت باكية رغما عني فأغلق الطبيب باب مكتبه الذي احتوى حديثنا هذا وأجلسني، ثم عاد إلى مكانه مجددا لا يجد ما قد يجدي نفعا لتهدئتي فآثر الصمت.

حاولت استجماع قواي والتمسك بالأمل وأنا أسأله:

- «لكن يوجد علاج! أليس كذلك يا دكتور؟»..

صمت الطبيب وحنى رأسه عجزا عن الإجابة التي يتحتم عليَّ سماعها بأذنيَّ حتى إن كانت مؤلمة..

- «للأسف، حالتها متأخرة للغاية»..

انتابتني حالة من الهستيريا وأنا أقول:

- «لكنها لم تشكُ من شيء على الإطلاق!»..

ثم انفعلت مجددا وأنا أقف لأقول في غضب:

- «لا بد أنك مخطئ، نعم.. أنت مخطئ.. أريد طبيبا آخر ليفحصها.. لا، بل سأنقلها إلى مستشفى آخر ليفحصها. سأفعل كل شيء، لا يمكن أن تكون تلك هي النهاية. لا يمكنك أن تخبرني بأنني سأخسر صديقتي الوحيدة بهذه البساطة!»..

ثم سقطتُ على مقعدي باكية كالطفلة الصغيرة، فازداد عجز الطبيب المسكين وقرر أن يتابع حديثه حتى ينهي ما لديه أيا ما كانت العواقب وقبل أن تزداد الأمور تعقيدا أكثر من ذلك:

- «سيدتي، لقد فحصناها جيدا، وتأكدنا عن طريق الأشعة المقطعية.. بإمكانك أن تنقليها إلى أي مكان آخر إن شئتِ، لكني أؤكد لك أن النتيجة واحدة»..

ثم صمت قليلا كمن يحاول كبح غروره الذي طُعن للتوِّ بالتشكيك في

تشخيصه وأراد الدفاع عنه فقال:
- «مشكلة سرطان الرئة أنه ليس بالضرورة أن يشعر المصاب بألم أو غيره من الأعراض، وهذا ما يجعل تشخيصه متأخرا. وأما عن سببه فهو التدخين بالطبع، وهذا أمر لا يحتاج طبيبا من هنا أو من هناك ليكتشفه.. أرجو أن تهدئي وتفكري في الأيام المقبلة، فهي الأهم في حياة صديقتك إن كنت حقا تحبينها»..

كانت جملته تلك كفيلة بأن توقف نزيف الدمع الذي خرج عن السيطرة:
- «أيام؟!»..

صمت برهة حاول فيها أن يصوغ ما يجب أن يقوله في شكل أقل قسوة:
- «للأسف، لن تعيش سوزي كثيرا»..
- «كم من الوقت؟»..

فصمت..

فأعدت تكرار سؤالي مجددا:
- «كم من الوقت؟»..

مجددا..
- «كم من الوقت بالتحديد يا دكتور؟»..

فانفعل بشكل تلقائي وهو يقول:
- «لست عرافا كي أخبرك بأي ساعة تموت!»..

ثم زفر أنفاس الغضب طاردا إياه، واستجمع هدوء أعصابه الذي فقده لتوه وهو يقول:
- «اهتمي بما تبقى، طال أو قصر»..

ثم نهض من مقعده وهو يقول:
- «يجب أن تعودي إليها الآن حتى لا تزيدي من مخاوفها، حاولي طمأنتها.. قدر الإمكان»..

مروان

الأيام الأولى في «الزلزال» كئيبة.. لا جديد، وكأني قد توقعت هبوط سفينة فضائية في الساحة الواسعة أمام شقتي!

كنت أمضي الوقت متنقلا بين جدران الشقة، أقرأ أحيانا وأخرج إلى الشرفة في أحيان أخرى، لكني ما أتيت إلى هنا من أجل القراءة، فمن الأفضل إذًا أن اجلس في الشرفة لعلي أجد ما أبحث عنه، ويا ليتني أعلم عمَّ أبحث أنا!

لا أحتاج من الوقت الكثير حتى أجزم بأن «الزلزال» بيئة فاسدة، موبوءة. فتيات لا يجدن غضاضة في بيع أنفسهن لمن يدفع أكثر، وشباب قضوا نحبهم في تعاطي تلك السموم.

هذه التي تغمز لي الآن وهي ترفع عباءتها لتكشف عن إحدى ساقيها، ما الذي يدفعها لفعل ذلك؟ أتجد في ذلك لذة أو إرضاءً لشهوتها؟ أشك، فهي لا تسلم حتى من مضايقات المارة وإيحاءاتهم الجنسية على مرأى ومسمع من الجميع، وكأن الجميع قد اعتادوا ذلك فصار بالنسبة لهم أمرا عاديا، أو ربما ركنا من أركان الحياة اليومية في «الزلزال»!

وماذا عن هذا الشاب الذي يجول المنطقة حاملا سمومه غير مكترث برؤية الناس له، فلا يبدو عليه آثار القلق من أن ينفضح أمره لدى الشرطة مثلا!

ما زال أمامي الكثير لكي أعلمه عن هذا المجتمع الغريب عني كليا، لكن عليَّ أن أقلق بشأن أمور أهم الآن، مثل تناول الطعام، فأنا جائع بالفعل.

دخلت المطبخ لكي أعد وجبة سريعة تناسب العشاء، وبينما أنا منهمك في

تحضير العشاء السهل سمعت طرقات على باب الشقة فاتجهت مسرعا نحو الباب.

كان الطارق شابا طويل القامة رفيع الجسم لديه لحية خفيفة لا تبدو التزاما دينيا بل ربما إهمالا للحلاقة. عرضت عليه الدخول فاستجاب لدعوتي التي لم تكن جادة أبدا.

اتخذت لنفسي مجلسا وصمتُّ بعد أن أفرطت في الترحيب بضيف لم يعرِّف نفسه لي حتى الآن!

استدرك الضيف الثقيل الموقف حين تنبه أخيرا إلى أنه لم يعرِّف نفسه بعد، فقال في بلاهة:

- «أنا آسف، نسيت أن أقدم لك نفسي. أنا تامر، جارك في الشقة المقابلة لك»..

- «أهلا وسهلا بك يا أستاذ تامر»..

ثم عاد الصمت ليخيم بيننا قبل أن يقطعه هو باعتذار متأخر:

- «أنا آسف لأنني أتيت إلى هنا فجأة، لكني لاحظت وجودك هنا منذ يومين تقريبا ففطنت إلى أنك الساكن الجديد هنا؛ لذا فكان واجبا عليَّ أن آتي للترحيب بك بيننا»..

- «أشكرك، هذا من كرم أخلاقك يا أستاذ تامر»..

- «لا داعي لأستاذ هذه، أنا لم أتشرف باسمك بعد!»..

- «أنا مروان.. مروان محمود»..

- «لقد تشرفنا يا أستاذ مروان»..

فقلت مداعبا لكسر حاجز الملل الكئيب:

- «لا داعي لأستاذ هذه»..

فضحك ضحكة بلهاء أثارت بداخلي ندما عميقا على تلك الدعابة البسيطة. استأذنته في أن أذهب إلى المطبخ لإنقاذ طعامي، وعرضت عليه البقاء لتناول الطعام برفقتي، وبالطبع لم أكن جادا في تلك الدعوة، لكنه نهض

مفضلا الرحيل بعد أن سخر من حياة العزوبية التي أحياها هنا، وعرض عليَّ أن أكون ضيفه وعائلته على غداء الغد!

حاولت التنصل من الدعوة، لكنه بدا مصرا، ربما كان ذلك نوعا من الترحيب بالوافد الجديد إلى المنطقة.. فاضطررت إلى قبول دعوته، وربما يكون ذلك فاتحة خير!

في اليوم التالي اتجهت إلى شقته التي لا يبعد بابها عن بابي سوى خمس خطوات على الأكثر.. طرقت الباب فاستقبلني «تامر» الذي قد بدا وكأنه ينتظر قدومي.

كان «تامر» ابنا لأب صعيدي، قدم من الصعيد منذ سنوات طوال قبل أن يتزوج بالسيدة «حسنية» التي أنجب منها «تامر» و«سماح» الأخت الصغرى لـ«تامر» ثم توفي ليترك عائلته الصغيرة أمانة في رقبة رجله الذي أنجبه من صلبه.

لكن «تامر» لم يكن أهلا لهذه الثقة، ولم يكن على قدر المسئولية.. فقد كان «تامر» مزاجيا إلى حد كبير، لا يستقر في عمل لفترة طويلة ثم يتركه لأي سبب تافه.

كان رجل البيت الحقيقي هو والدته السيدة «حسنية»، التي تحملت مسئولية البيت الصغير الذي ورثته هو ومن به عن زوجها.

كان استقبال «الست حسنية» لي استقبالا حافلا لدرجة تثير الريبة في نفسي. كان ضروريا أن تثير المبالغة في إعداد كل هذه الأصناف من الطعام القلق في نفسي، وهي بالنظر إلى مستواهم المعيشي تبدو باهظة التكلفة! عندما انتهينا من تناول الطعام عرض عليَّ «تامر» تناول الشاي بشرفة شقتهم فقبلت على مضض، فقد بدأت أعد الدقائق التي تسبق رحيلي.

أمضينا برهة من التأمل في حركة المارة ولعب الأطفال الصغار وسبابهم البذيء لبعضهم البعض، وقد بدا «تامر» مستمتعا بذلك إلى حد بعيد، بل كان يشجعهم عليه أيضا من شرفة منزله حيث وقفت إلى جواره نتجاذب

أطراف الحديث.

الجميع هنا يعرف «تامر»، و«تامر» أيضا يعرف الجميع؛ لذا فقد وجدتها فرصة لأنهل من فيض خبرة «تامر» بالمنطقة:

- «منذ متى وأنت تعيش هنا يا تامر؟»..

- «يا أستاذ مروان، إن والدي الحاج عبد الستار هو أول من خطت قدمه أرض هذه المنطقة، وكانت حينها عبارة عن بلوك واحد فقط، هو هذا البلوك الذي نعيش فيه»..

كان «تامر» يتحدث بمبالغة واضحة في تعبيرات وجهه تنم عن مبالغة أخرى في حديثه، لكنه على أي حال عاد لإكمال ما بدأه من مبالغات حين سألته عن عمله:

- «أنا أعمل سائقا بشركة أسمنت طرة، لكنه عمل مرهق وخطر أيضا يا أستاذ مروان. أتعلم شيئا؟ لقد هاجمني ثلاثة أشخاص تحت تأثير المخدر في أثناء سيري على الطريق السريع، وأرادوا سرقة الشاحنة التي أقودها وكل ما معي من مال! لكنني لم أترك لهم الفرصة، فقد ضربت أحدهم بقبضة يدي هذه فكسرت أنفه، ثم التفتُّ إلى الثاني فضربته بركبتي في بطنه فخرَّ على الأرض يقيء دما، ثم التقطت حجرا من الأرض وضربت به الثالث على رأسه فسقط صريعا، ثم أمسكت برأس الرابع...»..

فقاطعته في دهشة:

- «ألم يكونوا ثلاثة فقط؟»..

- «لا، بل أربعة»..

- «حسنا.. حسنا»..

لا داعي للتدقيق في الرقم فما قاله لا يستحق حتى الاستماع.

لاحظت في أثناء ذلك تلك الفتاة التي حاولت من قبل إغرائي، تقف مع شاب يبدو وكأنه يتحرش بها جسديا فالتفتُّ إلى «تامر» لعله يصدقني القول هذه المرة:

- «من هذه الفتاة يا تامر؟ وكيف تفعل ذلك أمام الجميع هكذا؟»..
ضحك «تامر» ضحكته البلهاء المعتادة وهو يقول:
- «هذه هند»..
ثم أطلعني على تاريخها المشرف في خدمة الوطن؛ فهي نتاج علاقة غير شرعية بين الضابط والراقصة لكي يخرجها من قضية الآداب التي كانت على ذمتها.. ثم أكملت البنت مسيرة أمها، فهي لا تمانع في أن تكون تحت تصرف من يشحن لها كارت شحن من فئة العشرة جنيهات، أو يتنازل عن حساب مشترياتها مثل ذاك الشاب في محل البقالة الكبير على حد قول «تامر».
ثم لاحظ «تامر» انصراف تركيزي إلى تلك العجوز التي احتلت مكانًا واضحًا في مدخل المنطقة، فأراد أن يستعرض معلوماته الذهبية أمامي، فأطلعني على حكايتها هي الأخرى.
هذه السيدة اغتصب زوجها ابنتها الوحيدة، فقتلته وسُجنت على أثر ذلك، ثم هجرتها ابنتها وانتقلت للإقامة مع عمها في البلوك المقابل، يقصد الشقة التي خرجت منها الفتاة التي وقع بصري عليها أول ما وقع حين قدمت إلى هنا برفقة المعلم حلمي الجزار، اسمها نوارة وهي كذلك.
ومنذ أن خرجت العجوز من السجن وهي تأتي بشكل يومي إلى هنا، وتجلس في ذاك المكان وكلها أمل في أن تظفر عيناها بنظرة عفو من ابنتها الوحيدة.
قطع حديثنا المستفيض عن «الزلزال» هجوم الأخت سماح حاملةً صينية الشاي التي وضعتها قريبة منا ثم تسمرت في مكانها، فالتفت «تامر» نحوها ورمقها بنظرة رجولية أجبرتها على التراجع والانصراف.
لكنها لم تلبث أن عادت مجددا في ذيل أمها التي حضرت لكي تكمل وصلة الترحيب التي بدأتها عند دخولي.. كان عليَّ أن أخفي انتباهي لغمزة الأم لابنها التي أتبعتها باستئذاني في سرقة «تامر» مني للحظات، وكأني أعبأ لذلك الـ«تامر»!
سرعان ما تجلى لي أن الأمر كله مدبر مسبقا، لكي تتاح لي فرصة الاختلاء

بالفتاة التي في أواخر العشرينات من عمرها «سماح»، لكن، لِمَ قد يخططون لذلك؟ لم يكن الأمر بحاجة إلى بحث أو تدقيق، فكل ما تطلبه الأمر لكي ينكشف السبب هو نظرة نحو البنصر في كلتا يديها!

حسنا يا «سماح»، لقد انتهى وقت المزاح.

قاطعت أسئلتها التي اعتادت الفتيات سؤالها حين يأتي لخطبتها عريس صالوناتي، فلم أكن واحدا من هؤلاء ولن أكون. فآثرت طلب الانصراف قبل أن يحضر المأذون الذي كان يتجول بالصدفة داخل الشقة وسرعان ما سيتبعه الشهود.

كان الأمر مخيبا لآمال والدة «سماح» التي علقت آمالا كبيرة ولا أفهم سببا لها على احتمالية زواجي من «سماح».

«سماح» لم تكن قبيحة المظهر، بل على العكس تماما. فـ«سماح» جميلة المظهر، بيد أن الكمية المفرطة التي تضعها من مساحيق التجميل تخفي ملامحها الحقيقية، فلا يمكن التمييز بينها وبين حائط قد تم طلاؤه حديثا! كما أن لبسها الضيق الفاقع ألوانه ولهجتها الشعبية المبتذلة هي الفارق بينها وبين أي فتاة أخرى من تلك التي تسيل لعاب شباب كليتها والكليات المحيطة.

آمل أن تنال «سماح» نصيبها، لكني آمل أيضا ألا يكون ذلك على حسابي.

ميشيل

تلك هي المرة الأولى التي تطلب مني فيها «سيمون» لقائي دون أن تصحبني «سوزي»، بل ودون أن تعلم أيضا!

أجد في ذلك خيانة لـ«سوزي»، حتى إن كانت «سيمون» صديقة «سوزي» الوحيدة. لم أعتد يوما فعل شيء دون أن تعلم «سوزي» به، قليلا ما كانت تسألني «سوزي»، كثيرا ما كنت أحكي لها طواعية.

يقولون إن شخصية «سوزي» القوية تطغى فوق شخصية «ميشيل» الضعيفة، فليقولوا ما يقولون، لست آبَه بهم أو بما يقولونه، لا أجد غضاضة في أن تكون «سوزي» هي حبيبتي وأمي وشقيقتي، لا أجد في حبي لها جريمة تستحق الخجل. ذلك هو الحب الذي أومن به، وذاك هو الذي جمعني بـ«سوزي».

عليَّ أن أسرع الخطى الآن للحاق بموعدي مع «سيمون»؛ فـ«سيمون» دقيقة منضبطة في مواعيدها، ويستشيط غضبها إن أخل أحدهم بموعده معها.

ها أنا ذا قد وصلت، وها هي «سيمون» جالسة لم يبدُ عليها الانزعاج واضحا كما توقعت مسبقا، شيء ما قد تغير بـ«سيمون»، ربما سببه رحيل «مروان» عنها!

جلست على المقعد المقابل لها على الطاولة دون حتى أن تنتبه لقدومي فأعدتها إلى عالمنا بنداء هادئ:

- «سيمون»..

انتبهت حينها في فزع لقدومي، لكنها رحبت بي بطريقة فاترة حزينة.. ربما ما زال جرح «مروان» لم يندمل بعد.

- «ماذا بك يا سيمون؟»..

- «أنا؟ لا شيء»..

ثم أشارت إلى الجرسون وهي تخاطبني متسائلة:

- «ماذا تريد؟»..

- «أريد أن أفهم»..

طلبت من الجرسون فنجانين من القهوة ثم أمالت رأسها إلى الأسفل.

- «صمتك هذا يرعبني يا سيمون، حدثيني أرجوكِ!»..

رفعت رأسها ثم صوَّبت عينيها الدامعتين في عيني وهي تقول:

- «سوزي يا ميشيل»..

«سوزي»! هذا آخر شيء توقعته! لكن إن لم تكمل جملتها الآن فقد يتوقف قلبي عن الخفقان:

- «سوزي! ما لسوزي؟ تكلمي يا سيمون أرجوكِ»..

- «سوزي مريضة بسرطان الرئة يا ميشيل والطبيب يقول إن الأيام المتبقية لها معنا ليست كثيرة»..

ثم عادت بظهرها إلى الخلف واغرورقت عيناها بالدموع وتركتني أنا تائها لم أدرك بعدُ ما قالته لتوِّها!

لا يمكن أن تكون قد قالت إن «سوزي» التي أحبها أكثر من نفسي والتي بالنسبة لي لا أعتبرها شريكة حياتي بل حياتي كلها ستتركني وترحل! ليس هذا اتفاقنا بالأساس.. لقد عاهد كل منا الآخر على ألا يفرق بيننا شيء.

- «أنت بالتأكيد لا تقصدين أن سوزي زوجتي.. ستموت! أليس كذلك؟»..

حاولت جاهدة كفكفة دموعها وهي تقول:

- «للأسف يا ميشيل، لقد أكد الطبيب...»..

قاطعتها منفعلا قبل أن تكمل جملتها التي لن أصدقها بكل تأكيد:

- «أي طبيب يا سيمون؟ إنه شخص أحمق بالتأكيد ليدعي مثل هذا الادعاء.. سوزي لم تمرض قط!»..

- «اهدأ يا ميشيل، أنا بحاجة إليك، وسوزي أيضا بحاجة إليك»..

حاولت كبت غضبي والسيطرة على انفعالي وأنا أقول:

- «كيف علمت بالأمر؟ وهل علمت سوزي بذلك؟»..

فقصت عليّ ما شهدته:

- «لقد أحست سوزي ببعض التعب فأردت الاطمئنان على صحتها فاصطحبتها إلى المستشفى وهناك أجريت لها الفحوصات اللازمة وبعدها أكد لي الطبيب إصابتها بهذا المرض اللعين»..

- «لكن سوزي لم تشكُ يوما من شيء!»..

- «لقد أكد لي الطبيب أن هذا المرض لا تصاحبه تلك الأعراض المعروفة من الألم وغيره، وهذا ما يؤخر اكتشافه»..

- «وما سبب هذا المرض أصلا؟»..

- «التدخين يا ميشيل، التدخين»..

انزعجت وأنا أقول في أسى:

- «لقد تعبت من كثرة محاولاتي معها للتوقف عنه، لكن دون فائدة.. يجب أن نعرضها على طبيب آخر»..

قلتها على الرغم من يقيني بأن الأمر سيان، لكن «سيمون» لم تبد اعتراضا.

فريدة

لم يخبرني «مروان» بشأن رحيله! لكن، لِمَ قد يخبرني أنا؟ لا يوجد ما يجمع بيني وبين «مروان» إلا بضعة حوادث تسببت له فيها.
لكني لم أقصد حدوث ذلك، كما أن شيئا ما بداخلي قد تغير من ناحية «مروان». لم أعد أكره إتيانه ولا أتوق إلى ضربه كما كان في السابق. ربما ما فعله حين كان مدعوًّا في بيتنا يستحق هذا التغيير.
لكن لأكون منصفة فهو لم يُسِئ إليَّ من قبل، بل أنا من أسأت إليه، لكني مع ذلك فقد اعتذرت إليه مرارا وانتهى هذا الأمر إلى الأبد.. إن شاء الله.
لا أعلم سببا لتلك الرغبة غير المبررة لرؤيته مجددا، لكنها صارت غير قابلة للشك أو الإنكار.. أنا حقا أريد رؤيته ثانية. أخشى أن أكون معجبة به، لكن لا، لست معجبة بـ«مروان»، ولا بغير «مروان» أيضا.
لن أثق برجل ما حييت.. الوثوق برجل كائتمان الذئب على الشاة!
- «فريدة»..
كان ذلك صوت أمي مستردا إياي من الغرق في بحر أفكاري داخل شرفة منزلنا.
- «نعم يا أمي»..
- «سنذهب غدا لتناول الغداء عند جيراننا، لقد دعتنا الحاجة فاطمة اليوم»..
- «لا أرغب في الذهاب يا أمي، أرجوك اعتذري لهم بالنيابة عني»..

ثم أدرت ظهري مجددا عائدة بنظري نحو الشارع الهادئ بفعل المساء، لكن الحوار لم يكن قد انتهى بالنسبة لأمي التي قالت مولية الأدبار:

- «حسنا، كما تريدين، لكني حرصت على أن أبلغك لأن الحاجة فاطمة طلبت مني ذلك. فقد حسبتك ومروان صديقين ولهذا دعتك»..

أتقول أمي هذا لأعدل عن فكرة الاعتذار أم لتختبر مشاعري تجاه «مروان»؟ أيا ما كان فقد اندفعت متسائلة:

- «هل سيكون مروان حاضرا؟»..

ابتسمت أمي في خبث ولؤم ظاهرين وهي تستدير نحوي قائلة:

- «نعم، وبالتأكيد سيزعجه غيابك»..

- «أتظنين ذلك؟»..

ها أنا أندفع مجددا، ولأمي الآن الحق في أن تفهم ما تشاء.

- «امممممم، ولِمَ أنتِ مهتمة إلى هذه الدرجة؟»..

ارتبكت في خجل وأنا أقول:

- «أنا؟ كلا، على الإطلاق.. لست مهتمة.. إطلاقا»..

- «حسنا، وهذا ما حسبته»..

هناك وادٍ في الجحيم مخصص للنساء من نوع أمي.. الآن عليَّ أن أتجاهل وجود «مروان». فلا أستطيع العدول عن قراري والذهاب برفقتها فهذا سيعزز ظنونها.

ولكن، لِمَ قد أفعل أمرا مماثلا؟ ولِمَ قد أهتم بقدومه أو غيابه؟ لست حتى مكترثة لذلك.

لكن كل الكذب ينسى في الصباح؛ لأنه كذب.. فقد هرولت خلف أمي حين شرعت في الخروج من المنزل بنية الذهاب إلى شقة «مروان» غير عابئة برد فعلها أو بظنونها، ما يحركني أقوى من إرادتي ومن ظنونها.

استقبلتنا الحاجة «فاطمة» وأجلستنا في الصالة الفسيحة، ثم ما لبث أن خرج من المكتبة الدكتور محمد، خال «مروان»، فاستأذنته أمي في الدخول

بصحبة زوجته إلى المطبخ لمساعدتها، وجلس معي برهة قبل أن أسأله أنا عمَّن أتيت بحثا عنه:

- «لا أرى مروان، ألم يأتِ لزيارتكم؟»..

- «مروان داخل المكتبة»..

ثم تابع متسائلا:

- «أنت لم تشاهدي المكتبة من قبل.. أليس كذلك؟»..

- «بلى»..

- «حسنا، بإمكانك أن تشاهديها الآن، ستجدين مروان بالداخل لمساعدتك»..

تسمرت بمكاني لبرهة لست متأكدة إن كنت أرغب في هذا حقا أم لا، لكني مع ذلك نهضت خجولاً فرحة أبحث بنظري عمَّن طال انتظاره.

ليس غريبا أن تجد الكثير من الأشياء التي تجمع بين اثنين أراد الله لهما اللقاء، لكن ماذا تساوي كل تلك الأشياء إذا ما قورنت بحب القراءة، حين يربط الكتاب بين عقلين ربط الله بين قلبيهما؟

كان منشغلا عن الدنيا بكتابه الذي يحلق في سماواته، لكن طرقات خجولاً مني على باب المكتبة أعادته إلى هذا العالم مجددا.. ليتني أحلق معه فلا نعود إلى هذا العالم أبدا، لا يوجد ما يسعدني بهذا العالم.

فقط الخوف هو رفيقي، الكل تخلى عني إلا هو. ولدت وحيدة بهذا العالم لأم ضعيفة مسكينة، تحتاجني أكثر مما أحتاجها، لكني ضعيفة، فإن كنت سندها في هذه الحياة فمن لي أنا؟

- «فريدة!»..

قالها بدهشة من لم يتوقع رؤيتي بين عالمه، فاقتربت وأنا أقول في توتر:

- «لقد عرض عليَّ خالك إلقاء نظرة على المكتبة من الداخل، حتى إنه قال إنك ستساعدني!»..

ارتبك «مروان» وهو يقول:

- «طبعا طبعا»..

ثم التفت يمينا ويسارا قبل أن يضع كتابه على المكتب الخاص بخاله ويسرع نحوي قائلا:

- «ستجدين في هذا القسم كل كتب التاريخ التي تحتويها المكتبة، كلها بالعربية، رتَّبها خالي بترتيب العصور»..

ثم التفت إلى الخلف وهو يقول مشيرا بيده:

- «وهنا ستجدين الكتب الكلاسيكية لكبار الكتاب المصريين أمثال نجيب محفوظ وطه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم»..

ثم تحرك هو باتجاه قسم الروايات بينما تحركت أنا نحو كتابه الذي تركه ملقى على المكتب ثم التقطته وأنا أقول:

- «مروان محمود! هذا اسمك، أليس كذلك؟»..

التفت نحوي ليرى الكتاب الذي التقطته يداي فخفض يدا كانت قد امتدت لتشير إلى القسم الذي توقف أمامه وهو يقول:

- «بلى»..

- «لكن هذا الكتاب مكتوب باللغة الفرنسية، أنت ألفت كتبا بالفرنسية؟»..

ضحك وهو يجيب:

- «كتبا! إنه مجرد كتاب واحد.. مشروع رواية تُوِّج بالفشل»..

- «ولماذا فشل؟»..

- «هذا ما أنا عاكف على دراسته الآن، أريد أن أحصي أخطاء تجربتي الأولى كي لا أكررها في تجربتي الثانية»..

- «إذًا، فأنت عازم على إعادة المحاولة!»..

- «بالطبع، لا يمكنني إيجاد نفسي بين عدد من الطلاب أحدثهم عن عظماء فرنسا من الأدباء بينما هم منصرفون إلى أمور أخرى مثل تسريحة ذلك الممثل أو ذاك المطرب»..

ابتسمت ابتسامة الرضا لسماعي كلامه الأخير، لا شيء يؤلم كما الفشل؛ لذا فالعبور من فوقه وتجاوزه لإكمال الطريق هو قمة النجاح.. الإنسان

الذي يفعل هذا قادر على النجاح مهما كانت الظروف أو التحديات التي ستواجهه.

بنظرة سعيدة استدعتنا الحاجة «فاطمة» لتناول الطعام، فتبعتها و«مروان» إلى الخارج. الكل هنا ينظر لي و«مروان» بوجه تعلوه الابتسامة.

إنها أمي لا ريب.

قويت العلاقة بيني وبين «مروان» كثيرا خلال الأيام التي تلت ذاك اليوم.. فصرنا نحادث بعضنا البعض هاتفيا، وفي بعض الأحيان كان «مروان» ينتظرني أمام كليتي ليرافقني في طريق العودة للمنزل.

صارت كل الخلافات التي اختبرتها أنا و«مروان» مجرد ذكريات نضحك منها كلما تذكرناها.

لكن الأمر تجاوز هذا الحد؛ ففي يوم من الأيام التي مر بها «مروان» ليرافقني في طريق العودة طلب مني ألا نعود مباشرة إلى السيدة زينب فقبلت.

صحبني «مروان» إلى «كافيه» هادئ في المعادي، وبعد لحظات صمت طوال تحمس أخيرا وقرر البوح بما اكتنف:

- «أنا أحبك يا فريدة»..

كنت أشعر بهذا الإحساس وأعيشه بالفعل قبل سماع تلك الكلمة وكان نطقها مجرد أمر روتيني بالنسبة لي، لكنه لم يعد كذلك حين قالها.

دارت بعقلي حسابات أخرى تتعلق بالارتباط برجل وهو ما يعني الوثوق به والتضحية من أجله حتى تحين تلك اللحظة التي يخونني فيها ويبيعني بثمن بخس.

هاجمتني الأفكار من كل حدب وصوب حتى اندفعت مني كذبة لم أكن لأنطق بها إن فكرت في الأمر ولو لدقائق قبلها:

- «وأنا أحب شخصا آخر»..

- «ماذا؟»..

- «أنا آسفة يا مروان»..

ثم نهضتُّ استعدادا للذهاب في طريقي فأصر على مرافقتي لكني فضلت ألا يفعل وانصرفت بمفردي عائدة إلى منزلي وحضن أمي.

أم أيمن

الأيام تمضي وما فات لن يعود.. لا شيء يزداد بمضي الأيام قدما إلا العمر، أخشى ذلك اليوم الذي أستيقظ فيه في الصباح فأنظر إلى المرآة لأجد شعري وقد كساه البياض. حينها سآوي إلى فراشي أنتظر ساعتي.

ليس بحياتي ما يجعلني أندم على ما فاتني فيها، فأنا المرأة الريفية التي قدمت من المنصورة مع والدها هربا من الشائعات التي لاحقتها بعد وفاة زوجها الأول بعد مرور شهر واحد فقط من زواجنا! توسط لأبي أحد أقاربه ليعمل بمصنع الإنتاج الحربي في حلوان، ثم مضت أيام لا أكترث لتذكرها قبل أن يتوفى والدي هو الآخر، حينها تزوجت «فؤاد»، وقد كان حينئذ يكبرني سنا بما يزيد على العشرين عاما.

لم يكن «فؤاد» رجلا سيئا، حتى إن اعتبرت تركه لزوجته الأولى خيانة، لكنه في النهاية تركها من أجلي.. عاملني بلطف وكان دائم الحرص على إسعادي، لكنه مع ذلك كان شكاكا للغاية، وكان شكه هذا يزداد يوما بعد يوم مع تقدم عمره وبخاصة حين ينظر إليّ فلا يجد آثارا للمشيب.

إنني أشفق على كل فتاة أجبرتها الظروف على أن تتزوج من رجل يكبرها سنا، لكني مع ذلك أشفق أيضا على كل رجل أقدم على ذلك.. ستعيش حياة تعيسة دون شك، لكن من قال إنه سيكون أفضل حالا منها؟

نعم هو المخطئ، ونعم قد يعرف السعادة لفترة من الوقت، لكن المصير ذاته ينتظره.

حين مات «فؤاد» لم أبكه؛ فقد مات قبل موته بزمن طويل.. مات أولا حين توقف جهازه الرجولي عن القيام بواجبه، ثم مات ثانيا عندما أقعده المرض على كرسي متحرك، ثم كانت ميتته الأخيرة مجرد إجراء رسمي.

حياتي بعد «فؤاد» لم تختلف كثيرا عن حياتي معه خلافا لما توقعت لنفسي.. ظننت أنني قد امتلكت روحي مجددا، لكن الأوان كان قد فات، مضى العمر وحيدة حتى في وجود «فؤاد»، والآن عليَّ أن أكمل ما تبقى وحيدة أيضا.

لكن كل شيء تغير حين ظهر «مروان» فجأة في حياتي.

كان «مروان» مستأجرا للشقة التي أملكها عن والدي، وقد كنت أعتمد على المعلم حلمي الجزار - وهو معرفة قديمة - في كل الأمور التي تخص الشقة، لكن حين مات «فؤاد» قررت أنا تنحية المعلم حلمي والاضطلاع بأمور الشقة كلها.

لم أكن أحب «الزلزال»، ولم يكن قومها يحبونني كذلك، لكن كان عليَّ أن أتولى أنا مسئولية الشقة لكي أبعد المعلم حلمي الذي طلب الزواج مني بعد وفاة «فؤاد» ورفضت طلبه.

كانت أول زيارة لي من بعد وفاة زوجي حين ذهبت أول الشهر لتحصيل الإيجار من الساكن. وهناك التقيت «مروان» الذي فتح الباب نصف عارٍ. يبدو أنه كان قد خرج من الحمام لتوِّه فلم يستطع أن يكمل ارتداء ملابسه كاملة.

كان جسد «مروان» جذابا بالنسبة لي وأنا من لم ترَ أجساد الرجال منذ عمر مضى. لم أتمكن حينها من الإمساك بلجام بصري فنلت من جسده كما تنال المرأة من زوجها بعد اشتياق، لكن سرعان ما اعتذر واستأذن في إكمال ملابسه بعد أن عرفته بنفسي.

كان «مروان» قد طلب مني الدخول وهو ما لا يجوز لي، لكنني دخلت، ثم طلب الجلوس إلى أن يكمل ارتداء ملابسه وترك باب الشقة مفتوحا.

عندما عاد كنت قد أغلقت الباب ولمحت في عينيه نظرة صوب الباب متسائلة عن السبب.. جلس أمامي خجلا بينما كنت أنا أتأمله وأتذكر جسده العاري.. تلك أفكار لا يمكنني انتزاعها من عقلي.

كنت مجبرة على قطع الصمت الذي ساد بيننا بسؤاله عن الإيجار، فاستأذن في إحضاره، وبينما هو بالداخل تسللت أنا خلفه نحو الغرفة مدعية أني أطمئن على الشقة، محاولةً إغراءه، لكن يبدو أن المفاجأة هي ما كتَّفت حركته حينها. فـ«مروان» لم يكن ليقاوم شهوته حينها، كنت أشعر بذلك؛ فالنساء يقرأن ما بعقول الرجال فيما لا يستطيع الرجال فعل ذلك.

أحسست أن الوقت غير مناسب حينها، فآثرت الانصراف عن الشقة، لكن لم ينصرف «مروان» عن عقلي أبدا.

قررت أن تكون زيارتي الثانية لـ«مروان» مفاجئة؛ فذهبت إلى الشقة واستخدمت نسختي الخاصة من مفتاحها.. وأخرجت الطعام الذي كنت قد طهوته مسبقا في منزلي واستعددت لتناول أول وجبة ثنائية منذ وفاة «فؤاد».

حين أدار «مروان» مفتاح الشقة في بابها أدار قلبي معه، كنت خائفة من رد فعله على الرغم من ثقتي في رغبته التي رأيتها بأم عيني في المرة الأولى.. لا أعلم من أين أتيت بتلك الجرأة، لكني لست نادمة مع ذلك.

حين رآني «مروان» انتابه فزع لحظي بدا واضحا على معالم وجهه، لكنه سرعان ما تبدد حين تقدم وأغلق خلفه الباب. كانت الدهشة أمرا طبيعيا والتساؤلات مشروعة:

- «أم أيمن! كيف دخلتِ إلى هنا؟»..

- «أدخلت المفتاح في باب الشقة ثم أدرته قليلا فانفتح»..

كنت أقولها بطريقة ساخرة مثيرة للضحك، حتى إن «مروان» تجاهل كل شيء وضحك، فاستغللت أنا الموقف لكي أكمل قائلة:

- «لقد خمَّنت بما أنك تعيش بمفردك في أنك تشتاق حتما إلى الأكل البيتي؛

لذا فقد أعددت لك وجبة دسمة ستعجبك إن شاء الله»..
الغريب في الأمر أن «مروان» استجاب للأمر وتعامل معه بشكل عادي؛ فعلى الرغم من جرأتي التي لا أعلم مصدرها فإنني توقعت منه أن يطردني. لكنه جلس وتناول الطعام وأبدى استحسانا لما تذوق وما رأى.. فقد خلعت عني حجابي الأسود حين جلس هو لتناول الطعام، فلم يعد هناك ما أنا بحاجة لإخفائه بعد الآن.
لم يستطع إكمال وجبته بعد أن عثر على وجبة أفضل، فنهض من مكانه تسوقه شهوته واقترب مني في بطء الخائف، فنهضت أنا بدوري، وأردت أن أزيل عنه عباءة الخوف فتركت له المساحة كي يقترب، ثم جذبته إليَّ فقبَّلته، كلا لم أقبله، فما فعلته كان شيئا أبعد من ذلك، يكفي أن أقول إنني كدت ألتهم شفتيه من فرط النشوة.
كنت أحس بحالة الهياج التي انتابته وأشعر بدفء وجهه الذي احمر لونه، فكنت أضمه بقوة فيضمني هو بقوة مضاعفة. دفعني نحو الحائط مستمرا في تقبيلي، ثم نزع عني عباءتي السوداء التي ما عرفت غيرها لفترة طويلة، وظل يقبلني في عنقي وصدري وكل قطعة لحم كشف عنها قميصي الأحمر اللامع، ما ترك مكانا إلا وقد ترك به بصمة شفتيه.
جذبته أنا وسقطت به على الأرض فاعتلاني، ثم تدحرج فاعتليته وظللنا نتبادل الأوضاع هكذا حتى التحم جسدانا فصارا كالجسد الواحد، ثم نزع عني ملابسي ونزعت عنه ملابسه وضاجعني بقوة وشغف شديدين.
لن أكون مبالغة حين أقول إن هذه هي المرة الأولى التي أمارس فيها الجنس في حياتي.
حين انتهينا نهضت مسرعة فارتديت ملابسي فأحسست على وجهه علامات الانزعاج، فقبَّلت خده واعتذرت إليه قائلة:
- «أنا آسفة جدا، لكن الناس هنا يحسبون عليَّ أنفاسي؛ لذا فلن أستطيع القدوم إلى هنا مجددا»..

ازداد انزعاج «مروان» ونهض فجأة لا يكاد يستوعب الأمر لكني تداركته حين قلت:

- «لن آتي إلى هنا لأنك ستأتي إليَّ هناك، في شقتي»..

- «وأين شقتك تلك؟»..

- «في حلوان، تبعد عن هنا عشر دقائق فقط بالسيارة»..

- «وماذا عن أهلك؟»..

- «أنا وحيدة يا مروان، ليس لديَّ أحد، توفي والدي وزوجي فصرت وحيدة»..

أسرعت في جمع متعلقاتي وأنا أقول:

- «أعطني رقم هاتفك حتى أتمكن من مكالمتك حين أجد الوقت مناسبا لقدومك»..

أخذت الرقم وانصرفت وإن كان بيدي ما انصرفت عن «مروان» أبدا.

مروان

أي حماقة تلك التي دفعتك إلى هذا الجرم يا مروان؟ لقد اندفعت كالأسد الجائع الذي رأى فريسته وحيدة في الغابة، ففتك بها دون أي إحساس بالذنب.. كيف تحولت إلى هذا الحيوان الذي لا يملك سيطرة على شهواته؟ لكن ماذا أملك أنا وقد أسلمت نفسها إليَّ؟ لم أكن أحاول اغتصابها أو إكراهها على ذلك، لقد أتتني بمحض إرادتها، رغبت في ذلك كما رغبت أنا فيه.. فما الضرر في ذلك؟

لقد صرت أبحث عن المبررات لنفسي كي أبرئ ساحتي، لكني مدان لا ريب. لقد مارست الجنس مع امرأة لا يجمع بيننا إلا الجنس.. لقد خنت حبي لـ«ـفريدة»!

لكن، أين «فريدة»؟ لقد رفضتني «فريدة»، قالت لي وبكل قسوة: «أنا أحب شخصا آخر». فلِمَ أقلق بشأنها في حين لم تفعل هي؟ لكنك تظل مدانا على الرغم من ذلك يا «مروان».. لا تراوغ.

خرجت من شقتي لقضاء بعض احتياجاتي من محل البقالة شبه الوحيد بالمنطقة، فطلب مني «زيزو» - ذلك الشاب الذي يعمل بالمحل - محادثتي في أمر مهم، فأصغيت له بعد أن انزوى بي بعيدا عن المحل:

- «أنا كنت أرغب فقط في أن أرحب بك هنا في المنطقة، من الواضح أنك شخص محترم ومن أصول طيبة»..

- «أشكرك»..

لا أظن أنه طلب محادثتي وافتعل هذا الجو المخابراتي من أجل الترحيب بي في المنطقة التي أقطنها منذ أكثر من شهر!

- «ترددت كثيرا قبل أن أحادثك في هذا الموضوع، لكن لأنك إنسان محترم وخلوق ولا أقبل أبدا أن يتم التلاعب بك بهذا الشكل فقد قررت أن أصارحك وأمري لله».

خشيت حينها أن يكون الموضوع الذي يقصده هو ما دار بيني وبين أم أيمن، لعله رآها في أثناء دخولها الشقة، ولِمَ لا وهو يراقب سكان المنطقة وحركة المارة؟!

- «هات ما عندك يا زيزو».

فسألني بلهجة قلقة:

- «لقد أردت أن أسألك فقط.. هل دعاك تامر إلى منزله؟»..

تنفست الصعداء بعد أن خابت شكوكي والتفتُّ نحوه متسائلا:

- «ولِمَ تسأل؟»..

ارتبك «زيزو» وهو يقول في لهجة متوترة كلص ينكر جريمته:

- «لا شيء، لا شيء على الإطلاق، لكن...»..

تردد قليلا فأردت تشجيعه على الحديث كي يتسنى لي إنهاء هذا الحوار:

- «تكلم ولا تخف»..

- «إنك ضحية كمين يحاك لك يا أستاذ مروان، يريدون أن يزوجوك من سماح التي لا أحد في المنطقة قد يقدم على خطبتها بسبب سمعتها السيئة التي يعلمها الجميع؛ لذا فإنهم يحاولون استدراجك أنت الغريب إلى قفصهم»..

لم يكن كلامه مستغربا بالنسبة لي وقد حاولوا تهيئة جلسة ودية بيننا أفشلتها أنا عمدا، لكن لم أكن أعلم شيئا عن سمعة «سماح» ونفور الرجال منها!

- «ولِمَ أنت مهتم بهذا؟»..

- «كما قلت لك يا أستاذ مروان، أنا أشفق عليك، فأنت رجل طيب لا تقوى على مكر هؤلاء؛ لذا فقد أردت تحذيرك كي أريح ضميري»..

- «شكرا يا زيزو».

ثم استأذنته في الانصراف ومضيت قبل أن يناديني مجددا:

- «خذ حذرك يا أستاذ مروان»..

- «لا تقلق يا زيزو».

أقلقني حديث «زيزو»، فلم يكن الأمر بسيطا بحق.. لقد حاولوا الإيقاع بي تماما كما قال «زيزو»، وقد يطورون من محاولاتهم فأجد «سماح» ذات مرة داخل شقتي، فيأتي أخوها على حين فجأة فيلعب دور يوسف وهبي حين يقول: «لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم»، فأختار أنا الزواج حفاظا على حياتي!

كان رأسي ممتلئا بالأفكار المتضاربة حين صدمت دون قصد فتاة وأسقطت عنها حاجاتها.

لم تكن مجرد فتاة، بل كانت وجه القمر صاحبة الوجه الملائكي التي تقطن البلوك المقابل.. انحنيت لمساعدتها في جمع ما سقط منها وسط سيل أطلقته من الاعتذارات بينما استمرت هي في ترديد:

- «اتركني وابتعد»..

ظننت أن غضبها من اصطدامي بها هو ما يدفعها إلى قول ذلك..

- «أنا آسف يا آنسة، لكني لم أقصد ذلك حقا»..

لكنها استمرت في ترديد الكلمة ذاتها بعينين دامعتين ويدين راجفتين، ما أثار قلقي، فأردت استيضاح الأمر متسائلا:

- «هل هناك خطب ما؟»..

لم تتسنَّ لها الفرصة للإجابة، فقد هرولت تاركة وراءها كل ما سقط عنها حين رأت عيناها ذاك الشاب تاجر المخدرات يقترب، لا أعلم طبيعة العلاقة التي تجمع بين هذا الشيطان وهذا الملاك! لكني أعلم أنه قدم نحوي في

غضب فنهضت واقفا فدفعني إلى الخلف دفعة قوية أسقطت عني ما كنت أحمله بين يدي وهو يقول غاضبا:
- «ما لك وأختي أيها الأحمق؟ أتريد أن تموت الآن؟»..
ثم أخرج من جيبه مطواة فتحها وتقدم بها نحوي قاصدا الشر، حين ظهر «تامر» فجأة ليمسك به قائلا:
- «اهدأ يا مافيا، الأستاذ مروان رجل طيب، وأنا أعرفه، وهو بالتأكيد لا يقصد مضايقة أختك»..
كان يحاول دفع «تامر» بعيدا عنه وهو يقول في غضب:
- «تنحَّ أنت جانبا وابتعد عني»..
غير أن «تامر» اجتهد في إحكام قبضته وسط وابل من السباب الذي انهال عليه، حتى ظهرت والدة الفتاة العجوز فجأة فاقتربت من «مافيا» وجذبته من يده فانصاع لها، لكنها التفتت نحوي ورمقتني بنظرة لم تكن صافية على الإطلاق.
جذبني «تامر» من يدي واتجه بي نحو شقتي وهو يقول:
- «ألم تجد سوى مافيا لكي تثير المشاكل معه؟ إنه شاب متهور، وقد يقتلك تحت تأثير المخدر الذي يتعاطاه»..
فرددت بشكل آلي:
- «هو الذي اعتدى عليَّ»..
- «وماذا كنت تنتظر منه وقد رآك مع أخته؟!»..
- «كنت أساعدها في جمع ما سقط منها، ولا شيء غير ذلك»..
- «دعنا ننسَ الأمر»..
توقفت قليلا قبل أن أدخل إلى شقتي لكي أسأل «تامر»:
- «أنت لم تذكر لي شيئا عن علاقة الأخوة التي تجمع «مافيا» بتلك الفتاة حين سألتك عن «مافيا»! اكتفيت فقط بالحديث عن والدتها العجوز»..
- «ربما نسيت، لكن لِمَ أنت مهتم إلى هذه الدرجة؟»..

- «لست مهتما لكني أتساءل فحسب، إن كان زوج تلك السيدة قد اعتدى على ابنتها فأين كان أخوها ولِمَ لم يقتله هو؟»..

- «لم يكن يعيش معهم، فقد هجر مصطفى أمه حين أقدمت على الزواج بعد وفاة والده، فصار الشارع مأواه الوحيد حتى صنع منه مافيا، وحين حدث ما حدث لم يكن مصطفى يملك من الأمر شيئا، ولم يكن عمه ليستقبله في بيته كما فعل مع نوارة، فقد كان الجميع ينظر إلى مصطفى على أنه الولد الفاسد حتى استسلم إلى واقعه الفاسد»..

دعاني «تامر» لمجالسته في شقته وإكمال حديثنا بالداخل بدلا من الوقوف على السلم، لكني آثرت التهرب من تلك الدعوة غير البريئة فاعتذرت إليه واحتميت بشقتي.

كان أمر «نوارة» يشغلني، كنت أشفق عليها مما عانته ومما تعانيه إلى الآن.

كنت أراها ملاكا لا تستحق ما تقاسيه في حياتها الموحشة.

لعل القادم أفضل لها.

نوارة

إلى متى تستمر معاناتي؟ متى يتوقف الألم؟ لقد صحبتني الهموم منذ صغري.. حين توفي والدي أحسست بأن الحياة قد توقفت عن المضي قدما.. ثم وجدت نفسي مجبرة على تقبل زواج أمي، وهو ما لم يتقبله شقيقي «مصطفى» فتركنا ورحل حين كنت أنا بالتحديد في أمسّ الحاجة إليه.
الآن يعود «مصطفى» ليعوض ما فاته! يتشاجر مع هذا ويضرب ذاك دفاعا عن أخته العفيفة، لكن الوقت قد تأخر يا «مصطفى»، لم تعد رجولتك هذه مجدية، فقد فقدت أختك ما تتظاهر أنت بالدفاع عنه بشكل شبه يومي.
لم يكن زوج أمي رجلا سيئا من البداية، لكن في وقت ما حين كبرت أمي وكبرت أنا معها، صار تقبل مسألة تقدم العمر بزوجته صعبا، في حين تنغلق جدران بيته الأربعة على عروس متألقة قد حان وقت قطافها.
لا أعلم من الملام وأنا الخاسرة.. هل ألوم أمي لأنها تزوجت بعد وفاة والدي؟ لكن أمي لم يكن أمامها حل آخر بعد أن ضاقت بنا سبل الحياة! أم ألومها على أنها قتلت الرجل الذي اغتصب ابنتها الوحيدة؟ وهل كنت أنا لأتركه؟
وهل ألوم «طارق» على تركه لي؟ وماذا كنت أنتظر منه؟ لم يكن هو أو أهله الذين قبلوا الأمر في البداية على مضض ليقبلوا بألا تكون زوجة ابنهم الوحيد بكرا.. ناهيك عن أن أمها تقضي عقوبة السجن على ذمة قضية قتل زوجها، إضافة إلى شقيقها تاجر المخدرات!

أم ألوم «مصطفى» وقد تخلى عني بادئ ذي بدء؟! لكن، ماذا كان بيد «مصطفى» حينها؟ لم يكن من السهل عليه أبدا تقبل وجود رجل غريب بين أفراد أسرته، لم يكن ليتقبل وجود شخص آخر مكان والده.

«مصطفى» ضحية هو الآخر، ضحية بشر توقفوا عن كونهم بشرا.. ألقته ظروفنا المعيشية وضيق حالنا إلى الشارع فتلقفه أصدقاء السوء وتجار المخدرات، حتى صنعوا منه «مافيا».

لكن «مافيا» ضعيف، بل هو أكثر مني ضعفا. يخفي بداخله ذاك الشخص المنكسر قليل الحيلة مسلوب الشرف. ويخفي أيضا رغبة في التوقف عن كونه «مافيا».

أجد نفسي الآن مضطرة لقبول الزواج من ابن عمي المعاق ذهنيا ولا حيلة لي في هذا، فبالنسبة للجميع صرت بلا قيمة. صار زواجي أمرا حتميا حتى إن كان العريس رجلا يكبرني في السن بثلاثين عاما أو طفلا يصغرني بعشرة أعوام!

«مصطفى» يرفض، لكن عليَّ أن أوافق. صار الرفض خيارا غير مطروح بعد أن آواني عمي في بيته حين لم يكن لي مأوى آخر.

وما الفارق بالأساس؟ سواء كان معاقا أو مشلولا حتى؟ إن وجودي في الحياة مسألة وقت ليس إلا، أنتظر تلك الساعة التي تنهي صلتي بها.

أتمنى أن تكون قريبة.

ميشيل

اضطررنا مع تدهور حالة «سوزي» الصحية إلى نقلها إلى المستشفى، كان من المؤلم لي رؤيتها على هذه الحالة. «سوزي» ليست مجرد زوجة أرسلها الله هدية لي لترفق بروحي الضعيفة، لكنها أيضا أمي التي حُرمت منها صغيرا، «سوزي» هي كل ما لي في الحياة، فإن راحت «سوزي» فمن لي بعدها؟

لقد أرهق المرض «سوزي» فصارت نحيلة ضعيفة، ليست «سوزي» التي عرفتها طوال حياتي.. «سوزي» التي لطالما امتازت بقوة شخصيتها وحدّة طباعها صارت فجأة بهذا الضعف!

لعنة الله على المرض الذي يخطف منا أيامنا السعيدة ليستبدل بها أيام الحزن والشقاء.. لعنة الله على الموت الذي يسرق منا من نحب ويهدم مستقبلا كانوا قد رسموه لأنفسهم.

أفسد المرض مخطط «سوزي» لمستقبلها، أفسد عليها أمانيها، بل أمانينا.. فقد دونَّاها معا، فأمنيات «سوزي» لا بد أن تكون أمنياتي الخاصة.

لكن، ما نفع تلك الأمنيات الآن يا «سوزي» والرحلة التي قطعتها من الجنوب الأفريقي إلى الجنوب الفرنسي قد شارفت على الانتهاء؟

انسابت من عيني دموع عجزت عن منعها، ولِمَ أمنعها والآن هو الوقت المناسب للبكاء؟ لكن يبدو أن «سيمون» كان لها رأي آخر.. فقد اندفعت نحوي تجفف دموعي وتطلب مني التماسك، فقد كنا على وشك الدخول

إلى غرفة «سوزي» في المستشفى لرؤيتها وكانت تصر على ألا نُظهر الحزن أمامها.

- «ليس سهلا يا سيمون، ما تطلبينه مني ليس سهلا على الإطلاق»..

قلتها بعينين دامعتين فازداد حزن «سيمون» المرسوم على وجهها، وكادت تخونها دموعها إلا أنها تمالكت نفسها مجددا وهي تقول:

- «من أجل سوزي يا ميشيل»..

- «ما سالت دموعي إلا من أجل سوزي يا سيمون»..

ليت «سيمون» تشعر بما أشعر به، بيد أنني أفترض أنها شعرت به حين رحل عنها «مروان»، لكن شتان بين هذا وذاك، فـ«مروان» نسي حبه لـ«سيمون» وتركها غير مكترث بمصيرها أو بقلبها الذي طعنه. أما «سوزي» فهي لم تكن لتتركني إن كان الأمر بيدها.

وأين هو «مروان» الآن؟ أنا بحاجة إليه الآن أكثر من أي وقت مضى، إلى من أشكو هموم قلبي في غيابك يا «مروان»؟ إن كان حبك لـ«سيمون» قد تبدل، فماذا عن صديقك «ميشيل»؟

خرج الطبيب من الغرفة التي تضم «سوزي» بين جدرانها ثم توقف قليلا أمام بابها مصوبا نظره نحوي، ثم التفت نحو «سيمون» فاقتربت منه في محاولة منها لاستيضاح الموقف. كان الطبيب يخشى على «سوزي» من رؤيتي على هذه الحالة، فانزوت بي «سيمون» في جانب غير بعيد عن الغرفة، وحاولت تهدئتي قبل الدخول إلى غرفة «سوزي» حتى لا تسوءها رؤيتنا على هذه الحالة.

سمح لنا الطبيب أخيرا بالدخول إليها بعد أن أجبرنا على ارتداء الكمامات، على ألا نطيل البقاء بالداخل، ويا ليته منعنا رؤيتها، كان ذلك مرهقا لقلبي لكنه أرفق بروحي المسكينة.

ليتني أنا مَن مرضت يا «سوزي»، كانت رؤيتي لوجهك الساحر كفيلة بنسيان المرض وإدخال السرور على قلبي، لا أخشى الموت إن كان سيخطفني

من بين أحضانك، لكني أمقته حين ينظر نحوك بعيون طامعة.
حين دخلنا رمقت «سوزي» «سيمون» بنظرة رضا عن إخلاص صديقتها نحوها، ثم التفتت نحوي ومنحتني نظراتها الحانية حتى ظننت أنها لا تشعر بوجود «سيمون» بالغرفة.
كانت نظراتها أقوى من نفسي الضعيفة، لا أحتمل رؤية شمسها تغيب في حين أظل أنا عاجزا مكتوف اليدين لا أملك سوى قطرات أرثيها بها!
قالت «سوزي» بعينين دامعتين وابتسامة أصرت على فرضها:
- «لِمَ تهرب ببصرك بعيدا عني يا ميشيل؟»..
أطرقت ببصري نحو الأرض عاجزا عن مواجهتها فأرادت «سيمون» التخفيف من حدة المشهد بقولها:
- «أنت تعلمين أن ميشيل مرهف الحس ولا يحتمل هذه المواقف المؤثرة، خاصة إن كان الأمر يتعلق بزوجته الحبيبة»..
ثم التفتت نحوي وهي تقول:
- «أليس كذلك يا ميشيل؟»..
لن تخدعي «سوزي» يا «سيمون» حتى إن حاولتِ، «سوزي» تعلم كما أعلم أنا أن النهاية قد حانت، وأن لحظات الوداع المقيتة قد حانت.
التفتت «سوزي» نحو «سيمون» التي اتخذت لها مكانا غير بعيد عن فراش «سوزي» بينما تسمرت أنا لدى الباب فطلبت منها أن تتركها بمفردها معي، فهناك كلام لا بد له أن يقال حسب ما قالته «سوزي». ولا أعلم يا «سوزي» أي كلام هذا الذي لا بد أن يقال وأنت في تلك الحالة!
همست «سوزي» بصوت كالفحيح:
- «اقترب يا ميشيل»..
وحين اقتربت منها طلبت مني الجلوس فجلست، فمدت يدها فأمسكت بيدي وقربتها من وجهها ثم قبّلتها وأعادتها إلى حيث تنتمي، إلى قلبها الذي اعتاد أن يكون ملكا لي، فانحدرت مني دمعة كفكفتها هي بيدها الأخرى

قبل أن تقول بلهجة رقيقة:

- «الآن ليس وقت البكاء يا ميشيل، لقد أعطيتني الكثير، أكثر مما أستحق. منحتني الحب الذي لم أعرفه قبلك، منحتني حنانا ورقة لم أعهدهما في حياتي القاسية قبلك، جعلت مني ملكة متوجة على عرش قلبك»..

ثم صمتت قليلا قبل أن تكمل:

- «كل هذا وأنا لست المرأة الأجمل أو الأرق! لكنك احتملت، احتملت الكثير في صمت وجلد، أبيت أن تُسمعني كلمة تجرح أذنيَّ أو تدمي قلبي.. أنت لست إنسانا يا ميشيل، بل ملاك»..

حاولت مقاطعة حديثها فأبت بوضع سبابتها على فمي فأبقته مغلقا لكي تكمل هي:

- «آن لك أن تسترد حياتك يا ميشيل، انظر إلى الجانب المشرق من رحيلي، ترحل الشمس ليأتي القمر، عش حياتك كما أردت يا ميشيل، فقد واتتك الفرصة»..

- «حياتي هي حياتك يا سوزي، نعيش معا ونموت معا أيضا، فلا حاجة لي في البقاء من دونك»..

- «توقف عن هذا الهراء يا ميشيل، استمتع بعمرك ولا تدع حزنا كبر أو صغر يردك عن ذلك»..

- «لا أستطيع يا سوزي، أنتِ لا تفهمين. لقد منحتِني الحياة يا سوزي، لم أكن أعرف السعادة حق المعرفة حتى التقيتك، أنت صاحبة الفضل عليَّ يا سوزي.. فكيف لكِ الآن أن تطلبي مني أن أعيش حياتي؟! لقد عشتها بالفعل يا سوزي، قضيت أسعد أيامي بين ذراعيك، ولن أعيش يوما واحدا من دونك أبدا يا سوزي، أليس هذا هو الوعد الذي قطعناه معا حين قررنا الزواج؟ أن يشارك بعضنا بعضا السراء والضراء حتى الموت!»..

فاستوقفتني منزعجة:

- «ميشيل»..

- «نعم يا حبيبتي»..
- «الآن عليك أن تقطع وعدا آخر»..
فرددت بشكل آلي:
- «وما هو يا حبيبتي؟»..
- «عدني بأن تحافظ على حياتك الباقية بعدي، وألا تحاول اللحاق بي مهما حدث»..
ليس هذا ما يمكن تسميته بالوعد يا «سوزي»، أيمكن لإنسان أن يعد غيره بأن يتجرع كأس العذاب راضيا؟
- «لا أستطيع يا سوزي»..
اجتهدت «سوزي» وهي تقول في انزعاج:
- «بل تستطيع يا ميشيل، وهذه هي أمنيتي الأخيرة»..
ثم أتبعت في رقة:
- «عدني أن تفعل»..
ما أصعب أن يتمنى عليك حبيبك فلا تجد بدا من التلبية، فرددت في أسى:
- «أعدك يا سوزي»..
تنفست «سوزي» الصعداء وكأنها تنبأت بما قد أقدم عليه بعد رحيلها، ولِمَ لا وهي تعلم عني ما لا أعلم أنا؟
قاطعنا الطبيب حين اقتحم الغرفة على حين غرة قائلا:
- «يكفي هذا مسيو ميشيل»..
اضطررت إلى وداع «سوزي» ومغادرة الغرفة كي أمنحها فرصة للراحة، لكني بقيت بالمستشفى.. فليس بإمكان أحدهم أن يحيا بمكان فيما يحيا قلبه بمكان آخر.
ليت شمسك تشرق من جديد يا حبيبتي.

سيمون

لم أحسدك يوما في حياتك يا «سوزي»، لكن ربما آن لي الآن أن أحسدك على زوجك «ميشيل».. من منا لا تتمنى زوجا مثله، يتقبل أخطاءك ويحتوي غضبك ويهون عليك أحزانك، ثم إذا مرضت يظل إلى جوارك بلا كلل أو ملل، بل يستمتع بكل لحظة يقضيها إلى جوارك، لا يخشى على نفسه من العدوى في حين يتملكه الرعب من أن يزداد ألمك ساعة من الليل؟! من أين لك بهذا الزوج يا «سوزي»؟

أهناك رجل آخر بإخلاص «ميشيل» في عالمنا هذا؟ أكاد أجزم بأن وجود نسختين من «ميشيل» كافٍ لإصلاح هذا العالم.

لقد أحب «سوزي» حبا لم يعرفه البشر إلا في الروايات الرومانسية وأفلام الخيال.. حين علم بمرضها لم يتخلَّ عنها ولو للحظة، رافقها في المستشفى لحظة بلحظة، كان يرفض أوامر الطبيب بالابتعاد عنها ويصر على رؤيتها والجلوس معها، حتى حين كانت ترفض هي خوفا عليه.

«ميشيل» أخلص لـ«سوزي» حتى آخر نفس لها، بل وحتى بعد أن توفاها الله.. لم يكن ليمنعه من اللحاق بها إلا ذاك الوعد الذي قطعه على نفسه بألا يفكر حتى في الأمر؛ لذا فقد أخلص النية لتحقيق بقية أمنيات «سوزي» العشر التي لم يسعفها عمرها لإكمالها.

أما زالوا ينتجون هذا النوع من الرجال يا «ميشيل»؟!

لا أعلم إن كان عليَّ أن أبكي صديقتي أم أبكي نفسي أم أبكي «ميشيل».. فالجرح واحد يا «سوزي»، كنتِ الصديقة الوفية التي رزقني الله بها، وكنت لـ«ميشيل» الزوجة المخلصة وشريكة حياته التي تمناها فأنعم الله عليه بك، رحيلك عنا يقتلنا كل يوم ألف مرة يا «سوزي».

لم يعد لي أحد هنا، صرت وحيدة بالمعنى الحرفي للكلمة، رحل «مروان» ثم رحلت «سوزي» وأخيرا «ميشيل» الذي بدأ رحلة تحقيق أمنيات «سوزي»، وبدأها بزيارة إيطاليا التي لطالما رغبت «سوزي» في زيارتها ثم يعقبها بالسفر إلى أفريقيا، حيث يستكمل المشروع الذي بدأته «سوزي» من خلال الجمعية التي أسستها وجذبت إليها الكثير من رجال وسيدات الأعمال لتوفير الغذاء الجيد للقارة السمراء.

أين أنت من «ميشيل» يا «مروان»؟ أتدري بكل ما لاقى «ميشيل»؟ أتدري بما يقدمه من أجل «سوزي»؟ هل أحببتني يوما مثلما أحب «ميشيل» «سوزي»؟ وإن كنت قد أحببتني حقا فلِمَ تركتني؟ وإن كنت لم تحبني يوما لِمَ اقتحمت حياتي فجأة وتركتها فجأة فسببت لي هذا الجرح العميق يا «مروان»؟

لكن على الرغم من كل هذا الذي ألاقيه في غيابك، فأنا لست غاضبة منك، بل على العكس، فأنا أتمنى من كل قلبي أن تكون سعيدا في حياتك الجديدة التي اخترتها لنفسك من دوني. لست قديسة، لكن هكذا يشكلنا الحب يا «مروان».

فريدة

القرار ليس سهلا، كيف لي أن أطلبه بتلك السهولة لكي أعتذر عن جرح غائر سببته كلمة طائشة لقلبه البريء؟ هو لم يحاول إيذائي قط، وأنا قطعت شريانه بسكين بارد!

الاعتذار لن يكون حلا مجديا، والصمت أقسى درجات العذاب.. عليَّ أن أصحح الخطأ الذي ارتكبته، لكن هل أعلم أنا معنى ذلك؟ هل أدرك أنا ما سيترتب على نفي الكذبة التي أطلقتها لا ألقي لها بالا حين صارحني بحبه؟ سأنفي حبي المزعوم لشخص آخر فأغلق بابا لأفتح آخر! ليس هذا ما اجتهدت طويلا للهروب منه، فبين عشية وضحاها أهدم حصنا بنيته في أعوام.

أنا أخشى الحب، ولست أخشى الرجال؛ فلست مريضة لكن نفوس الرجال مريضة، تستحل الخيانة وزيف العشق.. يحسبون النساء سواء، كلهن جوارٍ لديهم، الحب والجنس مكفولان لهم أنَّى شاءوا دون قيد أو شرط، حلال لهم حرام علينا!

قد تهب المرأة نفسها لرجلها الذي أحبته ظنا منها أنها ملكته، لكن الرجل يهب نفسه لكل نساء الأرض.. لا يجد الرجل حرجا في أن يتزوج من واحدة أو اثنتين وربما أكثر ما دام قادرا، كما يزعم، وربما تزوج من واحدة وأحب أخرى دون أدنى إحساس بالذنب. ثم يسجن زوجته في قفص يسميه المنزل

ليحميها من غيره!
لكني مع ذلك أحدث نفسي بين الحين والآخر بأن «مروان» مختلف.. وكم أتمنى تصديق هذا، لكني أعلم أن «مروان» سيظل رجلا في النهاية، حتى إن نبت له جناحان من الريش وأضاءت حول وجهه هالة بيضاء من فرط القدسية!
لكن مع ذلك عليَّ أن أعطيه فرصة؛ فقد أثبت أنه يستحق واحدة.
أخرجت الرقم واتصلت به وانتظرت صوت «مروان» على الجانب الآخر فلم يخذلني انتظاري..
- «كيف حالك يا مروان؟»..
- «أنا بخير، كيف حالك أنت؟»..
- «لست بخير يا مروان، أريد أن أراك غدا، فلديَّ ما أريد قوله»..
فأجابني «مروان» بصوت ملؤه القلق:
- «فريدة، هل أنت بخير؟ هل هناك خطب ما؟»..
- «اطمئن يا مروان، أنا بخير، لكني حقا أرغب في محادثتك بخصوص أمر مهم».
- «حسنا يا فريدة، أراك غدا في محطة المترو».
لطالما اتخذت خطواتي وكلي ثقة في نفسي بأني على صواب، لكن الآن لا أعلم أن كنت على صواب أم لا، وأحسبني جانبت الصواب حين ادعيت وجود شخص آخر، وأحسبني كذلك للمرة الثانية حين عاودت مكالمة «مروان» في الأمر ذاته..
- «خيرا يا فريدة، لقد أقلقتني مكالمتك بالأمس»..
- «حسنا، في البداية أود أن أعتذر إليك عن اتصالي في وقت متأخر من الليلة الماضية...»..
قاطعني «مروان» قبل أن أكمل حديثي قائلا:
- «ليس هذا ما قصدته يا فريدة، لكني خشيت أن يكون قد أصابك مكروه

أو شيء ما من هذا القبيل، لا قدر الله»..
- «أصابني المكروه حين كذبت عليك يا مروان»..
اعتدل «مروان» في جلسته على مقعده داخل الكافيه الهادئ ذاته الذي جلسنا به المرة السابقة، وبدت الدهشة واضحة على معالم وجهه فاستطردت قائلة:
- «لا يوجد رجل آخر في حياتي يا مروان، ولم أحب أحدا.. غيرك»..
تبدلت ملامح الدهشة إلى الفرح وعلت وجه «مروان» ابتسامة مشرقة وهو يقول:
- «ولِمَ كذبت بشأن وجود رجل آخر في حياتك؟»..
- «كنت مضطرة لذلك يا مروان، فقد كنت خائفة»..
- «ولِمَ الخوف يا فريدة؟»..
- «الخوف موجود دائما حينما يتعلق الأمر بقلبي يا مروان.. لقد تزوج والدي بعد قصة حب طويلة كُللت بمولدي، عاش ثلاثتنا أسعد أيامهم حتى حُرمتُ من والدي الذي أحب امرأة أخرى غير أمي، فقرر فجأة أن يهجرنا ويترك كل ما يجمعه بعائلته خلف ظهره.. أتجدني بعد هذا قادرة على الوثوق بالحب بعدها؟»..
صمت «مروان» برهة يحاول نسج كلمات مناسبة قبل أن يقول:
- «لا يمكننا الحكم على الأشياء من خلال الآخرين، أترين لو أن الحكم على الإسلام مستمد من أفعال ابن لادن الإرهابية، فبِمَ كان سيحكم الناس على الإسلام؟ الحب بريء من روايتك هذه يا فريدة، الحب لا يعرف الخيانة»..
كان غريبا حقا أن تضرب مثالا بشخص إرهابي حين يكون الحديث الدائر عن الحب! لكنه يظل مثالا صالحا على أي حال.
صمتَ وصمتُّ أنا فعاد ليقول:
- «دعينا نبدأ حياة جديدة يا فريدة، ثقي بقلبك ثم ثقي بي وأعدك ألا أخذلك أبدا»..

أنهى حديثه بلمسة حانية من يده على يدي، كانت كفيلة بأن ترسم أمام عيني حياة جديدة، كالتي يتحدث عنها «مروان».

مروان

كانت أم أيمن ممددة إلى جواري على فراش نومها بشقتها في حلوان حين ارتمت بين أحضاني وألقت برأسها فوق صدري قائلة في سعادة واضحة:

- «لا أريدك أن ترحل الآن»..

فمسحت بيدي على شعرها الأسود الذي تتخلله خصلات مصبوغة باللون الأصفر كعادة أهل هذه المناطق العشوائية:

- «حسنا، سأبقى معك لبعض الوقت»..

أحسست بشيء من الارتياح فتذكرت أنني لا أعرف اسمها الحقيقي حتى الآن! فقررت سؤالها..

- «اسمي مديحة، لكن فؤاد كان ينتظر بلهفة ذلك النبأ السعيد بقدوم طفل حسبت أنا أنني على وشك إنجابه فأطلق عليه فؤاد اسم أيمن، وأسرف في التصديق بوجوده قبل أن يكذب الطبيب نبأ الحمل وينفي قدرتي على الإنجاب، لكن ذلك لم ينفِ عني الاسم الذي منحني إياه فؤاد»..

- «امممممم، لكني أفضل مديحة»..

- «سيسعدني أن تناديني به»..

ثم طبعت قبلة على صدري قبل أن تنزع عنها الغطاء لتنهض عارية فتلتقط ثيابها المتناثرة بمحيط الغرفة وهي تقول:

- «سآخذ حماما ثم أعد لنا طعام العشاء، فقد تمنيت اليوم أن نتناول العشاء الليلة هنا معا، وها قد تحققت أمنيتي»..

ثم غادرت الغرفة متجهة إلى الحمام.
نهضت من الفراش متثاقلا، أشعر بكسل شديد، ثم انحنيت لألتقط سروالي الذي ألقيت به على أرضية الغرفة قبل مضاجعة مديحة فإذا بي ألمح وجود فتحة ما في جانب من رأس السرير، بدت مثل خزنة ضيقة لها باب مزلاج من خشب «الأبلاكاج» الرقيق، كشفها لي الإهمال في إغلاقه، فرفعته إلى الأعلى كي أرى ما بداخلها فلم أجد سوى دفتر كبير، كل هذا الحرص وتحري السرية من أجل مجرد دفتر!
ترى ما الذي يحويه هذا الدفتر ليعلي من قيمته إلى هذه الدرجة؟ هذا هو السؤال الذي كنت أسأله لنفسي وأنا أقلب صفحات الدفتر الغامض حين عثرت على الإجابة..
- «كانت الحملات التي يقوم بها القسم للحد من تجارة المخدرات في حلوان وإيقاف رجالاتها خلف القضبان لا تتجاوز كونها مجرد اشتباكات متبادلة لا نعرف لها نهاية، في كل حملة نفقد واحدا من رجالنا على أقل تقدير وفي معظم الأحيان دون جدوى؛ إذ يفر المجرمون بما حملوه من المخدرات فتفشل الحملة ونخسر رجالنا، وحتى إن حالفنا الحظ في الإمساك بهم، فهم في النهاية مجرد أدوات يستخدمها من هو أكبر، المجرم الحقيقي هو محرك الدمى الذي لا يعرِّض اسمه أو حياته للخطر.
ولسوء حظنا فإن هذا الشخص هو نائب بمجلس الشعب عن دائرة حلوان، إضافة إلى صلة النسب التي تجمع بينه وبين واحد من السادة الوزراء.
ليس لنا أن نفتش وراءه أو أن نعبث بسمعة السيد النائب أو معالي الوزير؛ لذا فعلينا أن نلتزم الصمت.
لكني وجدت مسلكا آخر كمأمور للقسم؛ فقد قررت أن أسلك طريقا آخر يحفظ دماء الرجال ويحفظ بقاءنا في مناصبنا ويدخر المال من أجل المستقبل المجهول بعد التقاعد.
تمكنت من إيجاد قناة اتصال بواحد من رجاله وحاولنا التوصل جاهدين إلى

اتفاق يرضي جميع الأطراف.
كان الاتفاق ينص على أن نحمي تجارته وألا نتعرض إليها بأي شكل من أشكال المنع أو المصادرة، على أن يتعاون رجاله معنا في التنكيل بكبش فداء من هؤلاء التجار الذين يتعامل معهم بين الحين والآخر، كي نبيض وجوهنا أمام الوزارة ونبعد عنا الشكوك، ثم نبيعه الأحراز التي صادرناها بعد خصم النسبة المستحقة لإكمال قضية الاتجار.
كانت صفقة عادلة، أحفظ بها حياة رجالي وأنال القضايا التي أبحث عنها وأتحصل على ما ينفعني خلال الفترة بعد التقاعد، ويضمن هو استمرار تجارته بشكل آمن دون أي مضايقات، إضافة إلى الحصول على بضاعته بسعر أقل كثيرا من سعر السوق.. وبهذا فلا أحد يخسر»..
هذا الدفتر بالنسبة لي هو غاية ما بحثت عنه بقدومي إلى «الزلزال».. هذا هو كنزي الحالي ويجب أن يكون ملكا لي، لكن، كيف السبيل إلى ذلك؟
عثرت على كيس بلاستيكي أسود فوضعت الدفتر به، ثم هرولت باتجاه باب الشقة ووضعته في صندوق القمامة الموضوع أمام الباب، ثم عدت إلى الغرفة مجددا لأغلق الخزنة السرية ثم ارتديت ملابسي.
خرجت «مديحة» من الحمام ففزعت عندما رأتني وقد ارتديت كامل ملابسي استعدادا للانصراف:
- «إلى أين أنت ذاهب يا مروان؟»..
- «أنا آسف جدا يا مديحة، لكني تلقيت اتصالا مهما للغاية وعليّ الانصراف الآن»..
فقالت في انزعاج واضح:
- «لكن، كان من المفترض أن نتناول العشاء الآن! ألم يكن هذا اتفاقنا؟»..
- «أعلم يا عزيزتي لكني سأعوضك عن ذلك، أعدك»..
تركت «مديحة» منزعجة فيما هرولت أنا إلى خارج الشقة، فالتقطت الكيس البلاستيكي ثم أسرعت إلى شقة خالي، لا أعلم لِمَ شقة خالي وليست شقتي

بـ«الزلزال» لكن ربما لأن عقلي الباطن أوحى لي بالابتعاد عن «الزلزال».

العميد فؤاد

وبهذا فقد صنعت منظومة متكاملة لتحريز المخدرات واعتقال تجّارها ثم إعادة استخدامها.. وضعت خطة ثابتة لإدارة المنظومة، فنقطة بدايتها تقع لدى رجل النائب المعروف الذي يدير أعماله القذرة؛ إذ يقوم بإبلاغي بالمعلومات التي ترشدنا إلى الإيقاع بفريستنا من التجار، فيتم عمل القضية التي تستر عورتنا.

ثم تبدأ دائرة التجارة فيتم إرسال معلومات الصفقة، وكانت دائما ما تنص على النوع والكمية وكلمة السر الخاصة بعملية التبادل التي يتم تغييرها في كل مرة.

واتفقنا على أن يكون موقع التبادل بمسجد السيدة زينب، فلا أحد قد يشك أبدا في أن يتم أمر مثل هذا داخل بيت من بيوت الله، حتى أنا ما زلت عاجزا عن التصديق، كيف استطاع ضميرنا قبول ذلك؟

ثم يأتي دورهم هم في عملية التوزيع، فالمتسلم يذهب بالبضاعة إلى مركز التوزيع، وهي شقة لا يمكنني الجزم بمكانها على التحديد، لكن وفقا لتحرياتنا فهي في أغلب الظن تقع في دار السلام.. ثم يتم تقسيم البضاعة وفقا لحصة كل منطقة.

ثم تأتي عملية نقل الحصة من مركز التوزيع إلى الموزع المسئول عن كل منطقة، ظلت كيفية التوصيل محيرة لنا ولفترة طويلة قضيناها في جمع التحريات، كان الأمر ليكون أسهل إن كنا لا نخشى أن ينفضح أمر تحرياتنا

لدى رجالهم أو حتى لدى إدارة مكافحة المخدرات.
لكننا بعد بحث طويل اكتشفنا أن الصينيين هم من يتولون هذه المهمة؛ فقد استطاع هذا النائب ورجاله أن يصنعوا شبكة توصيل تربط مراكزهم بموزعيهم الكُثر عن طريق البائعين الصينيين الذين يجوبون حلوان كلها.
لا أحد سيوقف هؤلاء وهم يدخلون إلى كل بيت من بيوت مصر ويتحركون في شوارعها بحرية، سيستبعد أي رجل أمن مسألة تورط هؤلاء مع رجال المخدرات في مصر.
حتى إن خلصوا إلى ذلك، فما الفائدة؟ هذا هو السؤال الذي كنت دائما أسأله لنفسي بين الحين والآخر.. ما الذي قد يحدث إن انفضح أمري؟ هل سيعاقبونني على تجاهل إلقاء القبض على السيد النائب؟ وهل يمكنهم ذلك؟ أم سيعاقبونني على التعامل معه والاتجار في المخدرات؟ وكيف ذلك وهم لا يملكون توجيه الاتهام إليه؟ حسنا أنا أقبل بهذا فقط إن عاقبوه هو أيضا.
أما أنا وفي رأيي فقد خدمت بلدي قدر ما استطعت، وإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها.. فلم أكن لأتجاهل إلقاء القبض عليه إلا لأنني لا أملك ذلك حقا، ولا أملك حتى إلقاء القبض على رجله المسئول عن التوزيع، الذي لا أعلم عنه شيئا إلا اسمه الذي اعتادوا أن يلقبوه به «السفاح»، وهم يعلمون ذلك أيضا.
لذا فقد فعلت كل ما بوسعي للحد من تجارة المخدرات ولو بنسبة بسيطة، فما لا يُدرك كله لا يُترك جله، وأما عن بيعي للأحراز فهذا ثمن لا بد لي أن أدفعه، فإنك لا تخرج طهورا من البلاعة!

مروان

وجدت نفسي مهتما بتفاصيل هذه المنظومة التي صنعها زوج «مديحة» المتوفى والمذكورة بالدفتر الذي عثرت عليه في شقتها.

أخذت أبحث عن المزيد من التفاصيل المتعلقة بعملية التبادل، حتى وجدت ضالتي؛ فقد ذكر هنا أن سيدة عجوزا تذهب يوم السبت من كل أسبوع إلى مسجد السيدة زينب متنكرة في زي شحاذة، وعلى الرغم من أن عمليات التبادل هذه لا تتم كل أسبوع في واقع الأمر، لكنه ذكر أنها كُلفت بالذهاب كل أسبوع حتى تحفظ لنفسها مكانا داخل المسجد فيصير وجودها مألوفا لدى المترددين عليه من المصلين.

تتخذ العجوز مكانا ثابتا لنفسها إلى جوار المقام، فيأتي مخبر سري تابع لكاتب هذه المذكرات يحمل بضاعته في حقيبة صغيرة، فيسلمها إلى واحد من أولئك الذين يشرفون على الحفاظ على أحذية المصلين ومتاعهم مقابل أجر زهيد من المال، ثم ينضم إلى المصلين لأداء الصلاة، وحين يفرغ من صلاته يتجه إلى الشحاذة فيعطيها نصف عملة ورقية قطعها هو قبل أن يعطي النصف الآخر إلى من تسلم منه الحقيبة عند الباب. ثم يتجه المخبر نحو ذاك الرجل فيأخذ منه ثمن البضاعة التي كانت قد حملتها إليه الشحاذة عند دخولها في كيس بلاستيكي أسود. بعد أن أبدل الرجل محتويات الحقيبة والكيس في أثناء انشغال المصلين في أداء الصلاة.

ثم تنتظر العجوز حتى انصراف المصلين عن المسجد فتنهض مع آخر

المغادرين وتتجه إلى الرجل ذاته الذي قام بعملية التبديل فتعطيه نصف العملة الذي حصلت عليه من المخبر فيعطيها كيسها البلاستيكي الأسود بعد أن أبدل محتوياته من النقود بالمخدرات التي حملها المخبر إلى المسجد ثم تنصرف.

شغلتني تفاصيل عملية التبادل وأوحى إليّ شيطان عقلي أن أختبرها بعيني، لكن الأمر يظل خطيرا، وحتما سيشعر أحدهم بوجود من يراقبهم، لعلهم ينشرون رجالهم داخل المسجد وبين المصلين للاطمئنان إلى سلامة سير العملية.

لكني مع ذلك أجد نفسي شغوفا بخوض المغامرة أيا ما كانت التبعات، لكني لن أذهب كل سبت بالتأكيد لانتظار ما قد يحدث أو لا يحدث!

لذا فقد بحثت أكثر عن الأمر داخل الدفتر فوجدت أنه قبل كل عملية تبادلية يتم إرسال رسالة نصية تحوي شفرة متغيرة إلى قائمة من الأرقام غير المسجلة لدى شركة الاتصالات الخاصة بها ويحمل كل رقم منها واحدا من أطراف العملية المعنيين.

يتم إرسال الرسالة إلى القائمة قبل يوم السبت المحدد للتبادل، فإن أُرسلت الخميس، مثلا، فهذا يعني أن هناك عملية تبادل ستتم بعد يومين، وهكذا.. ولا يتم التبادل في أي سبت لم يسبقه إرسال رسالة الإبلاغ هذه.

الأمر برمته جدير بالمغامرة، لكن عليَّ إذًا أن أذهب إلى شقة «مديحة» كي أحصل على هاتف زوجها الذي أخشى ألا أجده هناك.. كما أخشى أن يكون قد تم حذف رقمه من القائمة بحكم وفاته.

على الفور أخرجت هاتفي المحمول واتصلت بـ«مديحة»، انتظرت طويلا قبل أن ترد بنعومة:

- «اشتقت إليك»..

- «وأنا أيضا يا عزيزتي، ولهذا اتصلت بك.. هل الوقت ملائم الآن؟»..

- «فلنجعله ملائما يا عزيزي، سأنتظر قدومك بعد ساعة من الآن في شقتي»..

- «حسنا يا عزيزتي، لن أتأخر»..

هرولت خارجا من شقة خالي فإذا بي أجد «فريدة» أمام باب شقتها وقد عادت لتوها من كليتها، فتهللت أساريرها حين رأتني وتلك طبيعة لهفة المشتاق، فابتسمت وأنا أقول:

- «اشتقت إليك»..

احمر وجه «فريدة» خجلا وانكمش ذراعاها إلى داخل جسدها ووضعت رأسها في الأرض خجلا.. ليست هذه «فريدة» التي يخشى الناس إغضابها حتى لا تكيل لهم السباب أو ربما تضربهم، بل هذه «فريدة» الرقيقة، العاشقة والضعيفة.

- «إلى أين أنت ذاهب؟ هل ستعود الآن إلى شقتك؟»..

- «كلا، لا.. بل لديَّ مشوار مهم سأقضيه وأعود إلى هنا ثانية»..

- «حسنا»..

توقفنا للحظات في صمت يريد كل منا أن يذهب في طريقه لكن قلبه يمنعه، إلى أن قررت أنا الاستئذان للحاق بموعدي.

- «هل تأخرت عليك؟»..

- «كلا يا عزيزي»..

قالتها وهي تغلق الباب ثم احتضنتني طويلا، وأنا لا أرى من الشقة إلا ذاك السرير داخل غرفة نومها.

- «لقد وعدتك بأن أعوض العشاء الذي فاتنا، وها أنا ذا، فماذا ستعدين لنا الليلة؟»..

دفعتني بكلتا يديها إلى الخلف في رفق حتى سقطت جالسا على أحد مقاعد الصالة وبدأت تنزع عني حذائي وهي تقول:

- «جاريتك بين يديك فمُر تُجَب»..

كان هذا شعورا فاخرا لم أعتده من قبل، وربما هذا هو ما يجذبني إلى «مديحة»، هي بكل تأكيد.. مختلفة.

- «حسنا يا جاريتي، لقد تركت لك الخيار، فأنا أرغب في أن تفاجئيني»..
- «حسنا يا مولاي، سأعد لك وجبة لن تأكل بعدها أبدا إلا من يديَّ هاتين»..
ثم نهضت متجهة إلى المطبخ فاتجهت أنا إلى غرفة النوم وأخذت أبحث في قلق وحذر شديدين عن هاتف زوجها الذي اعتاد أن يستقبل عليه الشفرة الخاصة بعملية التبادل.

بحثت في كل جزء من الغرفة ولم أجد شيئا، فخطر على بالي أن أعيد فتح الخزانة الموجودة بالسرير، ففتحتها وبحثت فلم أجد هاتفا، لكني لمحت شيئا صغيرا بداخلها فمددت يدي قليلا فأخرجته وكان هو ما بحثت عنه بالفعل، ليس هاتفا لكن شريحة خط.

حين كنت أخرج هاتفي لكي أضع به الشريحة التي عثرت عليها كي يتسنى لي التأكد منها، رأيت «مديحة» وقد وقفت أمام الباب في ذهول.

حينها توقف قلبي للحظات حسبت فيها أن «مديحة» قد رأتني وأنا أخرج الشريحة وانفضح أمري، لكن «مديحة» كانت قلقة بشأن أمر آخر..
- «سترحل إذًا مجددًا!»..
- «أرحل؟!»..
- «نعم، فأنت تمسك هاتفك الآن ولن تمضي دقائق قبل أن تقول بأن عليك الانصراف»..
- «كلا، لن أرحل. وهل هناك عاقل يدخل الجنة ثم يفكر في الرحيل عنها؟»..
قلتها وأنا أمد يدي كي أطوق خصرها لأحتضنها، وحمدت الله بداخلي.

أم نوارة

متى تشعرين بجراح أمك يا ابنتي؟ أعلم أنك لست مخطئة وأن جراحك أعمق، لكني أمك التي أفنت عمرها من أجلك، قد أكون أخطأت، لكني ندمت يا بنيتي، أما للرحمة سلطان عليك؟
أجلس كل يوم تحت قدميك أنتظر منك نظرة العفو البريئة، لقد كبرت يا بنيتي وصار الموت يشتهيني، لكني أقاومه، اعف عني يا ابنتي فإن في الموت راحة لم تألفها دنياي البائسة.
ولكن لا، ابقي بعيدة عن أمك القاتلة التي غسلت يديها بدماء زوجها الذي جنى على عذريتك، ابقي بعيدة عن أمك الفاسدة التي قتلت شبابا في مثل سنك دون ذنب بمشاركتها في تجارة المخدرات.
فرضت عليَّ وحدتي الطويلة فرصا كثيرة للاختلاء بنفسي، وكثيرا ما تمكن شيطاني من اختلاق الأعذار لنفسي الضعيفة، فقد تزوجت، لكن هذا كان من أجلك. كي أضمن لك حياة كريمة بعيدا عمَّا كنا قد نلاقيه بمفردنا في هذا العالم الموحش، نعم لقد قتلت زوجي، لكن هذا أيضا كان من أجلك، ما كان لي أن أذر من اعتدى على ابنتي فسلبها شرفها ليعيش يوما واحدا بعدها.
حتى عندما عملت مع تجار المخدرات، كان من أجلك كذلك.. أو هكذا صوَّر لي شيطاني، فقد حلمت بيوم ترضين فيه عني قبل أن تصيري عروسا متوجة فأردت أن أقوم بما تقوم به كل أم حين تجهز ابنتها؛ لذا فقد كنت بحاجة إلى المال؛ لأنني بحاجة لأن أكون أمًّا.. وهل كان بيدي الرفض على أي حال؟!

جلست أنتظر تلك النظرة التي طال انتظارها قبل أن أذهب إلى حيث عليَّ أن أذهب، فلما بخلتِ عليَّ بها وأغلقت بابها خلفها نهضت عن الرصيف الذي لطالما جلست عليه للسبب ذاته.

كان لديَّ موعد لا يمكنني إلا الوفاء به؛ فاليوم هو السبت، واليوم يتحتم عليَّ أن أذهب إلى مسجد السيدة زينب، وكم يؤلمني الذهاب إليه يوم السبت، فذاك هو اليوم الذي أعصي الله فيه داخل بيته، ويا لها من وقاحة.

دخلت إلى المسجد بعد أن ارتديت ملابس التسول وعكفت إلى مكاني الذي لا أبرحه إلا مع خروج آخر المصلين من المسجد كما هي الأوامر.

جلست أنتظر الرسول الذي حضر إلى المسجد ببضاعته، حتى إن لم يأتِ فأنا مضطرة للانتظار على أي حال، وكم كنت أتمنى ألا يأتي.

لكن الانتظار لم يطُل بعد أن انتهى المصلون من أداء الصلاة؛ فقد ظهر الرسول بنصف العملة الورقية. انتظرت حتى فرغ المسجد من المصلين إلا من قليل فنهضت من مكاني واتجهت إلى الرجل الذي يشرف على متاع المصلين وأعطيته النصف الخاص بي من العملة فأعطاني حقيبتي التي تركتها عند دخولي، لكن بعد أن استبدل النقود بداخلها بالبضاعة.

حملت البضاعة في كيسها البلاستيكي الأسود ومضيت في طريقي الذي كان مدوَّنا على العملة الورقية، كنت أشعر بأن أحدهم يتبعني، لا أعلم من قد يتبعني، لكني لا أعبأ، فماذا سيضير امرأة مثلي ذاقت كل أنواع الألم؟

حين حانت اللحظة المناسبة ألقيت الكيس من فوق الكوبري كما دُوِّن على الورقة، ثم أكملت طريقي كأن شيئا لم يكن.

لن يشك أحد في الأمر، فتلك عادتنا التي تربينا عليها، نلقي بأكياس القمامة السوداء بأي مكان ومن فوق أي مكان غير مكترثين بما قد يسبب من ضرر للآخرين.

انتهى دوري عند هذه النقطة، والآن يأتي دور جامع القمامة فيما أعود أنا إلى حيث أنتمي، تحت قدمي ابنتي.

فريدة

هل أنا حقا جاهزة لهذا النوع من الارتباط؟ لا أعلم، لكن قلبي يدفعني إليه دفعا.
أنا أحب «مروان»، وهو أيضا يحبني.. فلا شيء غير الحب قد يكسر عني قيودي التي صنعتها، لكني مع ذلك قلقة من طلب «مروان» أن يأتي ليخطبني من والدتي!
نعم، فرحت بطلب «مروان»، شأني في ذلك شأن أي فتاة طبيعية، وانتقلت عدوى الفرح إلى أمي التي لطالما انتظرت هذا اليوم بفارغ الصبر حتى تلقي عن كاهلها قلقا دام لسنوات طوال.
لكن، هل أنا حقا أرغب في هذا؟ وهل بإمكاني الرفض؟
لا أظن أنني أملك حق الرفض، ولِمَ الرفض؟ تلك قصة حب آن لها أن تتوَّج بالزواج، لِمَ القلق يا «فريدة»؟ توقفي عن استثارة المخاوف واصطناع المعوقات.

- «فريدة!».

انتشلتني أمي من بحر أفكار كنت لأغرق فيه دونها حين خطت نحو الشرفة حيث كنت جالسة بها أفكر في القادم المجهول..

- «نعم يا أمي»..
- «لِمَ أنت جالسة هكذا؟»..
- «أردت فقط أن أختلي بنفسي قليلا»..

- «الآن يا ابنتي! إن مروان وأهله سيطرقون باب شقتنا بعد أقل من ساعتين، عروس مثلك تحتاج إلى وقت طويل للاستعداد!»..

- «ولِمَ هذا كله يا أمي؟ أنا أعرف مروان وهو يعرفني، ولا أظنه سيراني الليلة للمرة الأولى في حياته»..

صمتت أمي وهي تفتش بعيني بحثا عن إجابة سؤالها الذي لم تكن قد طرحته بعد..

- «ماذا بك يا ابنتي؟ حدثيني بما في داخلك»..

اعتدلت في جلستي وأنا أقول:

- «لا شيء يا أمي، أنا بخير»..

- «لا يا ابنتي، لا تكذبي على أمك.. هناك شيء ما ليس على ما يرام»..

- «صدقيني يا أمي، أنا بخير»..

- «أنت تخشين الزواج يا ابنتي، تحسبين أن مروان مثل والدك، بل كل الرجال سواء، أليس كذلك؟»..

ذهبت ببصري نحو الشارع الممتلئ بالناس أبحث بينهم عن إجابة لسؤال أمي، هل حقا أرى أن كل الرجال سواء؟ هل يستوي هذا الذي يتحرش لفظيا بتلك الفتاة لأن ملابسها تثيره وذاك الذي يراه فيصمت عن ذلك ويغضب إن طال تحرشه واحدة من المحجبات المحتشمات كما يرى؟

نعم يا أمي، كل الرجال سواء. وإن كنت مع ذلك أجد أن «مروان» مختلف، أحب «مروان» وأخشى الارتباط به فقط حتى لا تتحطم الصورة الملائكية التي رسمتها له.

لكن أمي لم تنتظر جوابا تعلمه، فهي أم.. ولهذا تابعت حديثها..

- «الله لم يخلق كل الرجال ليكونوا أشرارا، ولو أرادهم كذلك لكانوا، لكن من هؤلاء الرجال الأنبياء والصالحون والشيوخ والقسيسون، لم يكن يوما الشر جزءا من تكوين الرجل، لكن الإنسان، رجلا كان أو امرأة، خُلق مخيَّراً، فإن اختار خيرا كان خيرا له، وإن اختار الشر فالشر أولى به»..

ثم استطردت:
- «لديكم في هذا العصر أشياء لم نعرفها نحن في أيامنا، مثل الإنترنت هذا.. لِمَ لا تبحثين عن كم زوجة خانت زوجها؟ أو ابحثي عن كم حبيبة تركت حبيبها خشية أيام قاحلة قد تدفعهم إليها ظروفه المعيشية الضيقة أو وفري بحثك هذا وتعالي معي نصعد إلى جارتنا الست نعمات التي لديها من القصص ما لا تكفي الأيام لسماعه»..
فضحكت أنا عندما تذكرت ثرثرة جارتنا تلك. ثم تابعت أمي:
- «الخيانة والكذب والشر ليست حكرا على الرجل يا ابنتي.. فلا تحمِّلي مروان جريمة لم يرتكبها»..
نهضت فاحتضنت أمي التي أراحت قلبي كما اعتادت أن تفعل منذ أتت بي إلى هذه الحياة المرهقة لي.. ثم أسرعت في الاستعداد لاستقبال «مروان»، فجأة أردت أن أبدو اليوم أجمل من أي يوم مضى.
كان صوت الست «فاطمة» المتسائل: «أين عروسنا؟» كالصعقة الكهربية لقلبي المرتعد.. لم أختبر موقفا مماثلا من قبل، وكانت أمي مقدرة لحالتي تلك.
خرجت إليهم بعد أن اقتحمت أمي غرفتي لتستدعيني، كانت اللمعة التي رأيتها في عيني «مروان» كفيلة بطمأنتي وبث الثقة بداخلي.
جلست إلى جوار والدتي وبدأت والدة «مروان» في كلام عائلي روتيني يحفظه القاصي والداني.. وكأنه سيناريو معتمد يصلح لهذا الموقف أيا ما كان البلد وأيا ما كانت طبيعة أهله أو ثقافتهم.
لم يطل جلوسي أنا و«مروان» طويلا؛ فقد أرادا لنا أن نجلس معا بمفردنا وكأنها المرة الأولى! لكن كلينا استجاب لهما دون مناقشة، وخرجت بصحبته إلى الشرفة حيث جمعتنا للمرة الأولى.. لم تكن المرة الأولى التي أراه فيها، لكني أحب أن أعتبرها الأولى؛ نظرا لسوء المشهد قبلها.
كنت خجولا، ولم أكن أظن أن لديَّ هذه الخاصية.. أنا أكره الخجل لأنه

يعوقنا عن فعل ما نحب أو قول ما نرغب لمجرد الخجل! لكن يبدو أن «مروان» كان أكثر خجلا مني..

- «هل ستظل صامتا هكذا؟»..

ارتبك «مروان» قبل أن يقول:

- «أنا آسف، لكن هذه هي المرة الأولى لي»..

انفعلت وأنا أقول:

- «الأولى؟ وهل تنوي على أن تكون هناك ثانية؟»..

فزع «مروان» من انفعالي المفاجئ وحاول تبرير زلة لسانه وهو يقول:

- «لا، لا.. لن تكون هناك مرة ثانية بالطبع.. أنا لم أقصد هذا إطلاقا»..

- «هذا ما حسبته»..

فجأة ضحكت من شكل «مروان» عندما فزع خائفا من سؤالي فضحك هو بدوره.

- «أعدك بأن يكون قلبي ملكا لك، وحدك تعرفين طريقه وتملكين مفتاحه، لا يفرق بيننا سوى الموت، وأدعو الله أن أسبقك إليه لتتاح لي فرصة استقبالك بعد عمر طويل»..

كانت هذه الكلمات هي أرق ما سمعت أذناي منذ أتيت إلى هذه الحياة..

كم أحبك يا «مروان»، وليت عينيَّ الخجولين تنوبان عني في الاعتراف بذلك.

الشيخ عبد الرحمن

بعد أن أنهيت صلاتي إمامًا للمصلين بمسجد الرحمة لاحظت حركة غريبة بين المصلين.. كانوا يتبادلون نظرات غاضبة وبعضها حائرة مع همهمات لم أتبينها لكثرتها.. لم أكن لأسأل عن السبب ما داموا لم يطلعوني عليه.

لكن أحدهم رفع صوته بالسؤال قائلا:

- «يا شيخ، هل قلت إن الحجاب ليس فرضا؟»..

درت ببصري أتفحص وجوههم الغاضبة ففهمت مغزى سؤالهم، فأجبته في هدوء الواثق:

- «نعم، جاءني رجل غاضب من زوجته غير المحجبة لما قد يلاقيه لأنه ترك امرأته تحيد عن فرض من فروض الله فقلت له: الله يحاسبها هي، ثم إن الحجاب ليس فرضا!»..

حنى السائل رأسه ألما فيما صاح أحدهم قائلا: «ألم أقل لكم؟!» وعلا صوت آخر مستغفرا.. لِمَ كل هذه الجلبة؟ أكل هذا لأنني نهيته عن ضرب زوجته أم لأنني تجرأت ونطقت بعدم فرضية الحجاب ؟ لكنها كذلك، حتى إن لم نجرؤ على التصريح بها علانية.

خرج أحدهم عن صمته وهو يردد الآية الكريمة بصوت جهوري منفعل:

- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي

مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا»..

- «يا أخي هذا الحجاب، وهو ما يعني الساتر، خاص بزوجات النبي (صلى الله عليه وسلم) وحده. فلا يمتد إلى ما ملكت يمينه من الجواري ولا إلى بناته، ولا إلى باقي المؤمنات.. والدليل على ذلك رواية أنس بن مالك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أقام بين خيبر والمدينة ثلاثا يبني (أي: يتزوج) بصفية بنت حيي، وهي امرأة يهودية من خيبر وقعت أسيرة حرب، فقال المؤمنون إن حَجَبَها (أي: إن فرض الحجاب بينها وبين الناس) فهي من أمهات المؤمنين (أي: من زوجاته) وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه (أي: من جواريه). فلما ارتحل وطأ (أي: مهّد لها خلفه) ومدَّ الحجاب (أي: وضع سترا بينها وبين الناس). وبذلك فهم المؤمنون أنها زوج له وأنها من أمهات المؤمنين وليست مجرد جارية (أخرجه الشيخان، البخاري ومسلم، في صحيحيهما)»..

فامتعض واحد منهم وهو يقول:

- «أنت تجادلنا في أمر لا تحل المجادلة فيه يا شيخ، عُد إلى صوابك وتُب إلى الله»..

فقلت بلهجة ودود:

- «يا أخي، ليست مجادلة، بل نقاش»..

فصاح آخر بالطريقة ذاتها التي صاح بها مرددا الآية الأولى:

- «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ»..

فصاح الحاضرون:

- «صدق الله العظيم»..

ثم أكمل المتحدث:

- «الآية واضحة وصريحة ولا تحتمل الشك»..
- «يا أخي، سبب نزول هذه الآية أن النساء كنَّ في زمان النبي (صلى الله عليه وسلم) وقبل مبعثه كذلك يغطين رءوسهن ويسدلنها من وراء الظهر، فيبقى أعلي الصدر ظاهرا لا ستر له. فأمرت الآية بإسدال المؤمنات للخمار على الجيوب؛ إذ يطلب الله من النساء أن يضربن بخمورهن على جيوبهن (أعلى الجلباب، حسب معاجم اللغة العربية) لستر الصدر وليس هنا بتاتا ما يدل على أن الأمر يتعلق بتغطية شعر الرأس.. فلو أراد الحق، عز جلاله، أن يجعل تغطية الشعر فريضة لأفصح عن ذلك بكل وضوح، وكيف لا وهو الذي أنزل القرآن كتابا مبينا؟!»..

سرت نظرات حائرة بين الحضور قبل أن ينطق أحدهم:

- «وماذا عن قوله تعالى: (وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)؟ كل علماء الأمة أجمعوا على أن الزينة هي الجسد، وما ظهر منها إشارة إلى الوجه والكفين»..

فأجبته بكل هدوء:

- «إن الزينة هي كل ما تضعه المرأة من أشياء اصطناعية خارجية تهدف من ورائها إلى التجمل، كوضع ماكياج الوجه في عصرنا هذا ولبس الحلي كالسوار والأقراط والخواتم والخلخال كما جاء في تفسير الآية الكريمة (وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)، أي أن الزينة كما هي مشروحة في معاجم اللغة العربية هي كل ما تضعه المرأة لتحسين مظهرها، وعلى هذا فلا يمكن اعتبار شعرها زينة»..

فصرخ أحدهم في حنق:

- «أنت بهذا تفسد علينا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، لن نجادلك في آيات الله حتى لا تصير فتنة، لكن اعلم أيها الرجل أن حكمة الله في فرض الحجاب هي للحفاظ على المرأة ووقايتها من تلك المصائب التي نراها اليوم من التحرش والاغتصاب وغيرهما، وحماية الرجل من فتنة الشهوة..

الحجاب يحمي المرأة والرجل»..

- «لم يكن الله ليأمرنا بغض البصر إن كانت حجتك صحيحة»..

صار الغضب يغلي في الصدور وهم يصرخون بأصوات غاضبة لا يفهم منها شيء وانتهت بأقوال متفرقة مفادها:

- «أستغفر الله العظيم».

أصابوا تلك المرة؛ فهم بحاجة إلى الاستغفار، والله يغفر الذنوب جميعا حتى ذنوب جهلهم وتجهيلهم.

مروان

لم أعد إلى «الزلزال» بعد خطوبتي على «فريدة»، بل مكثت بشقة خالي.. أحسست بأن شيئا ما يدفعني إلى الابتعاد عن هذا المكان، تلك البقعة الملوثة من الأرض، لكن ماذا عن هذا الدفتر الذي لا يحيد عنه بصري ليل نهار؟

الأمر لم يعد مجرد قصة تحكيها ليهلل لك قُرَّاؤها بالتمجيد، الوضع في مصر لا يصلح للروايات، ولا يصلح للبشر كذلك. ذاك الدفتر بين يديك ليس مجرد مغامرة جديدة أو قصة ممتعة تصلح للقراءة، هذا الدفتر يمثل جريمة تُرتكب في حق هذا الوطن، وأجزم أن هذا الدفتر ليس إلا مجرد نسخة مكررة لدفاتر أخرى تنتشر في ربوع مصر كلها.

الصمت عن هذا خيانة، وإن كنت لا أنكر أخطاء ارتكبتها عن حماقة، إلا أن الخيانة ليست من بينها.

إن ظل هذا الدفتر بعيدا عن مكانه الطبيعي يختل ميزان العدل، لكن أين مكانه الطبيعي هذا؟ في درج مكتب بوزارة الداخلية التي لا أستبعد أن تكون على علم به؟! وكيف سأجيب حين يسألونني عن الطريقة التي حصلت بها عليه؟

ثم إنني لم أشهد شيئا مما ذُكر في الدفتر كي أجزم بصحته، قد تكون مجرد محاولة لكتابة رواية ما أو ربما هلوسات مرض أو أي شيء آخر! كفاك هراءً يا «مروان»، أنت تعلم أن ما بداخله حقيقة لا تحتمل التأويل.

أعترف بأنني اتجهت إلى المسجد مبكرا ثم عمدت إلى أحد العاملين به

ورشوته كي يدخلني المقام دون علم أحد بعد أن ادعيت التشيع وصدقني الرجل أو قُل صدق المال إن شئت.

مكثت فترة ليست بالقصيرة وأنا أراقب المشهد خارج المقام من داخله، وحين ظهرت فجأة تلك العجوز أحسست بدقات قلبي تتسارع حتى ظننت أنها هربت إلى مسامعها.

ظللت أراقبها حتى أتى ذاك الرجل الغريب وأعطاها نصف العملة فنظرت إليه وكأنها تقرأ شيئا ما كان قد كُتب عليها ثم أخفته بعيدا عن النقود التي جاد بها المصلون. حين انصرفت لم أكن أملك الانصراف خلفها خشية أن تلحظ وجودي فأصير مستهدفا.

ركضت مسرعا إلى خارج المسجد أبحث عن أثر يرشدني إلى العجوز حتى لمحتها، تبعتها في حذر وتركت بيني وبينها مسافة كافية تُبعد عني الشكوك.. حتى أتت تلك اللحظة التي صعدت فيها الكوبري واتخذت طريقها على جانب من جوانبه فاتخذت أنا الجانب الآخر.

وفجأة ألقت بالكيس الذي تحمله من فوق الكوبري ثم أكملت طريقها. لم أكن أتوقع ذلك أبدا، وخشيت أن تكون قد تصرفت بهذه الطريقة لشعورها بوجودي، فتوقفت قليلا على الجانب الآخر أدرس موقفي حتى حسمت قراري فهرولت إلى الجانب الآخر حيث ألقت بالكيس وأخذت أتفحص ببصري المشهد أسفل الكوبري فلم أجد أثرا له!

ركضت إلى أسفل الكوبري كي أفتش عن الكيس أو من التقطه فلم أجد أحدا.. كيف هذا؟ وهل هذا جزء من خطة نقل البضاعة أم ماذا؟ لا أعلم. وكيف لي أن أعلم وهو ما لم يُذكر في الدفتر إطلاقا؟!

ثم عدت إلى شقة خالي بخفي حنين، بعد أن فقدت العجوز والبضاعة.

كل هذا وتحسب الدفتر دربا من الخيال أو الهلاوس؟

كان عليَّ أن أعود إلى «الزلزال»، فليس الآن هو الوقت المناسب للتراجع، ولِمَ خاطرت من البداية بقدومي إلى هنا على الرغم من علمي بطبيعة

المكان الذي أقبلت عليه. يجب أن أستمر، «الزلزال» تستحق أن تقدَّم للعالم من خلال رواية تعبر عن مشاكل هؤلاء القوم، هؤلاء حتما لم يولدوا هكذا، لم يولد أحدهم مدمنا أو مجرما أو حتى عاهرة.. حتما كان هناك يوم ما لم يعرفوا فيه إلى الشر طريقا.

حين عدت إلى هناك روَّعني مشهد سيارة الإسعاف والناس حولها مغمغمين، فأسرعت الخطى لعلي أتبين ما حدث في أثناء غيابي، فلما رأيت «تامر» حمدت الله على مرشدي في متاهة «الزلزال».

- «ماذا حدث يا تامر؟ لِمَ تقف سيارة الإسعاف هنا؟»..

كان «تامر» - الذي شهد حوادث أكثر بشاعة أفسدت عليه طفولته حتى تحول إلى مسخ معدوم الهوية - حزينا هذه المرة، لم أرَ دموع «تامر» من قبل إلا في تلك الساعة.. حاول «تامر» تمالك نفسه أمامي وأمام الجميع حتى لا يسخر منه أحدهم قبل أن يقول:

- «نوارة.. انتحرت»..

نزل الخبر على أذنيَّ كالصاعقة، لا يمكن أن يكون «تامر» قد قصد «نوارة» ذات الوجه الملائكي البريء، لا يمكن لهذه الشمس المضيئة أن تحرم الجميع من إطلالتها.. ولِمَ أنت مندهش إلى هذا الحد؟ أكنت تتوقع لهذه الوردة المتفتحة أن تدوم حياتها في الأرض القاحلة؟

- «وكيف حدث هذا يا تامر؟»..

فأجابني في أسى:

- «قطعت شرايينها»..

ثم استطرد:

- «لم تحتمل عذاب العيش في خزي وفقدان الأهل والحبيب، ثم الزواج من شاب معاق»..

كم أنت محق اليوم يا «تامر»، وكأنك قلت ما أدركه عقلي وعجز لساني عن النطق به.

فليتغمدها الله برحمته؛ فقد كانت الرحمة هي كل ما تحتاجه هذه المسكينة، لعلها تجد الأفضل عند خالقها.

مضت بعدها أيام كئيبة، ظلام الحزن يخيم فيها على المنطقة، فيجعل من الجميع أشخاصا آخرين غير هؤلاء الذين عهدتهم خلال مدة بقائي بينهم، يا لسخرية القدر عندما أتخيل أن الموت هو الشيء الوحيد الذي قد يوقظ الإنسان من غفلته، وما نفع اليقظة حين يذهب به الموت إلى عالم آخر بصحبة الندم؟

لكن سرعان ما عادت الحياة إلى طبيعتها، أو إلى عدم طبيعتها؛ فلم يكن من المفترض بالحياة أن تكون هكذا، نحن من جعلناها على هذا النحو، ثم لمناها على ما فعلناه نحن بها، فيا للإنسان.. خُلق ظلوما جهولا.

استيقظت «الزلزال» على صوت الهتافات والزغاريد، فأردت أن أخرج لأفهم ماذا يجري بالخارج، ولما خرجت وجدت «تامر» خارجا من شقته هو الآخر فسألته:

- «ما الأمر يا تامر؟»..

كنا نخطو نحو الخارج وهو يقول:

- «الأستاذ مصطفى يزور الزلزال»..

- «ومن الأستاذ مصطفى؟»..

- «إنه عضو مجلس الشعب عن دائرتنا، رجل قوي ومحترم، تخشاه الحكومة وتعمل له ألف حساب ويحبه أهل دائرته وينتخبونه فيجبرون الحكومة على قبول نجاحه رغما عنهم»..

- «وماذا يعمل هذا الرجل خلاف كونه عضوا بمجلس الشعب؟»..

- «الأستاذ مصطفى بكير رئيس حزب الوفاق القومي حسب ما أظن، ورئيس تحرير جريدة السبت، وعضو بالكثير من الجمعيات وله صلاته وعلاقاته المحلية والدولية»..

كنا قد خرجنا إلى الشارع وخطونا نحو الساحة الفسيحة أمام شقتي لنرى

الأستاذ مصطفى وقد التف حوله الناس يقبلونه ويشكون إليه من جور الحكومة على حقهم في الحياة، والأستاذ مصطفى يهز رأسه بإنصات ويتسلم الورقة تلو الأخرى فيسلمها إلى مساعده الذي يعتني بها في ملف خاص.

بدا الأستاذ مصطفى رجلا وطنيا يحرص على مصلحة المواطنين، وبخاصة من أبناء دائرته، يحبهم فيحرص على زيارتهم بين الحين والآخر، ويحبونه فيحرصون على انتخابه.

شعرت حينها بأني قد وجدت ضالتي، لم يكن هناك بد من تسليم الدفتر إلى من يحرص على الاستفادة منه في تحقيق العدالة، ولم أكن لأسلمه إلى وزارة الداخلية التي قد تربطها علاقات ما بالرجل ذاته تاجر المخدرات، ولم أكن لأسلمه إلى الإعلام؛ فمصيره حينها مجرد زوبعة وقتية سينساها الناس اليوم أو غدا ثم يخرج النائب ليطعن في كل ما قيل عنه ويتهم البعض بأنه يسعى للنيل منه لما يقدمه من خدمات لهذا الوطن فتزداد شعبيته ويحل الويل على المغرضين.

لذا فقد وجدت في الأستاذ مصطفى الشخص المناسب لهذه المهمة؛ فهو عضو بمجلس الشعب ورئيس حزب معارض ورئيس تحرير جريدة مستقلة؛ فهو يملك السلطة والإعلام، والأهم وهو حب الناس الذين سيدعمونه إن حاول أحدهم المساس به على خلفية فضح زميله النائب المبجل عن الدائرة ذاتها.

انتظرت حتى فرغ الرجل من الاستماع إلى الناس حتى حانت اللحظة التي يهم فيها بالانصراف واستغللت فرصة عدم انتباه «تامر» فأسرعت نحوه محاولا إيقافه فتوقف ليستمع إلى شكواي، وما أدراك سيدي النائب بشكواي.

- «سيدي، أرجوك.. كلمة واحدة قبل أن ترحل»..

توقف الرجل قبل أن يدلف إلى سيارته وهو يقول في ود بالغ:

- «تكلم يا بني، لن أرحل قبل أن أستمع إلى شكواك»..

- «ليست لي حاجة شخصية، فلديَّ مستند خطير يدين النائب محمد عزيز ولم أجد من هو أهل لحمله إلا أنت يا سيدي، وأملي في أن يتم فضح هذا الرجل ووضعه خلف القضبان على يديك الطاهرتين»..

- «حسنا يا بني أطلعني على هذا المستند فورا»..

- «أنا آسف يا سيدي، لكن هذا الملف ليس بحوزتي الآن، وأفضل ألا أعرضه عليك هنا»..

- «حسنا، سأنتظرك غدا في مكتبي بالمقر الرئيسي للحزب في تمام الساعة الثامنة مساءً»..

سرت بداخلي حالة من الطمأنينة، فأخيرا قد شعرت بوجود من هو قادر على إيقاف المجرمين خلف القضبان.. انصرفت إلى شقتي ثم اتجهت في اليوم التالي إلى شقة خالي لأحمل منها الدفتر ثم إلى المقر الرئيسي لحزب الوفاق القومي.

استقبلني موظف الاستقبال بمقر الحزب وأدخلني لمقابلة الأستاذ مصطفى الذي انتظر حضوري فيما توقعت نسيانه الأمر كعادة هذا النوع من الشخصيات المهمة؛ لذا فقد كان تذكره لموعدنا في حد ذاته باعثا على الأمل والتفاؤل.

- «خيرا يا... أنا لم أتشرف باسمك حتى الآن»..

- «أنا مروان محمود، ماجستير اللغة الفرنسية من كلية الآداب جامعة الإسكندرية»..

- «أنت سكندري إذًا، أنا أعشق الإسكندرية وأحب أهلها»..

فشكرت له إطراءه قبل أن يتابع:

- «أهلا وسهلا يا أستاذ مروان، حسنا إذًا، أطلعني على ما لديك»..

مددت يدي بالدفتر الذي حملته إليه فألقى نظرة على محتواه وأنا أقول:

- «هذا الدفتر هو مذكرات مأمور قسم شرطة، توفي منذ بضعة أشهر، يحكي فيه عن معاونته للنائب محمد عزيز في تجارة المخدرات، ويحكي عن

صفقات تمت بينهما، تم بمقتضاها بيع عدد من الأحراز التي تمت مصادرتها من تجار آخرين إلى النائب محمد عزيز»..

- «وما نوع هذه الأحراز؟»..

- «مخدرات»..

بدت علامات الفزع واضحة على وجه الرجل وهو يقول:

- «مخدرات!! هذه جريمة، كيف لنائب الشعب أن يقتل الشعب؟ هذا الدفتر في غاية الأهمية، ويجب أن ينال عقابه القانوني دون تمييز أو تفرقة، شأنه في ذلك شأن أي مجرم»..

- «ولهذا أتيت إليك، أنا أأتمنك على تنفيذ هذه المهمة، وأنا واثق أنك ستكون حريصا عليها»..

أغلق الرجل الدفتر ووضعه داخل درج مكتبه وأغلقه بمفتاحه ثم وضعه في جيبه وهو يقول:

- «لا تقلق يا أستاذ مروان، سينال هذا المجرم عقابه في أقرب فرصة، لكنك تعلم أن المجلس الآن ليس في دور الانعقاد، أي أن أعضاء المجلس في إجازة وعلينا أن ننتظر قليلا»..

- «لست قلقا ما دمت قد وكلت هذه المهمة إليك، الآن قد أديت ما عليَّ»..

ثم نهضت واستأذنته في الانصراف، ولما هممت بالخروج من عنده ناداني ليسأل سؤالا تأخر في طرحه:

- «أنت لم تقُل لي يا أستاذ مروان، كيف حصلت على هذا الدفتر؟»..

ارتبكت قليلا وجالت بنفسي ردود كثيرة اختار لي لساني أسوأها:

- «وجدته عند واحد من باعة الأوراق القديمة الذي يبيعها بالكيلو فلا يلفت انتباهه شيء مما فيها»..

ثم أسرعت بالانصراف قبل أن يستوقفني للسؤال عن تفاصيل أخرى فأضطر لاختلاق أكاذيب أخرى أقل تصديقا من سابقتها.

الآن فقط أشعر براحة الضمير.

مروان

هذه الجمعة قررت أن أصلي صلاة الجمعة في مسجد الرحمة بـ«الزلزال»؛ فقد اعتبرتها جمعة الوداع بعد أن نويت مغادرة «الزلزال». لا أشعر بأنني قد حققت الهدف المنشود من إقامتي بها، لكني لا آبه لذلك، فكل ما أريده هو الخروج من هذا المستنقع.

دخلت المسجد متأخرا كعادتي فلم ألحظ تغير الخطيب الذي اعتدت رؤيته حين كنت أصلي صلاة الجمعة بهذا المسجد، إلا بعد أن عثرت على مكان لي بين المصلين الذين ملأوا المسجد عن آخره.

هؤلاء القوم لا يمكن لأحد أن يزعم فهمهم؛ فهم يرتكبون الجريمة تلو الأخرى في حق البشرية وفي حق دينهم ثم يسارعون إلى الصلاة في المسجد، أي أناس هؤلاء؟ وكيف يظنون أن الله غافل عمَّا يعمل الظالمون؟

لكن ما الفرق بيني وبينهم؟ فأنا ذلك الشخص الذي هوى في أحضان المرأة التي أغوته دون أدنى مقاومة منه أو حتى أدنى إحساس بالذنب وتأنيب الضمير.. لقد كنت مستمتعا بتلك الدقائق التي قضيناها متلاحمين ولكم تمنيت أن تطول، وكم أتمنى الآن أن تعود!

وها هي صلاتي الوحيدة من بين صلوات الأسبوع قد أذهبتها أفكاري وذكرياتي الملوثة بذنوب لا يقوى البشر على حملها.

عاد بي من ذكرياتي القذرة صوت المؤذن يدعو إلى الصلاة فنهضت ملبيا النداء لأؤدي ركعات لا أعلم لها عددا، يكفيني أن الإمام يعلم؛ فهو وبكل تأكيد أكثر خشوعا مني الآن.

انقضت الصلاة فانتشر الناس كالذباب في المسجد يبحثون عن مخرجه، ثم مضى كل في طريقه بينما جلست أنا لا ألقي بالا لهؤلاء إلى أن ظهر أمامي رجل كثيف اللحية يرتدي جلبابا أبيض قصيرا وشالا أبيض يغطي به رأسه اقترب مني ليصافحني قائلا:

- «كيف حالك يا أستاذ مروان؟»..

تعجبت كثيرا لهذا الرجل الذي يعرف اسمي وأنا لم أرَه قبل هذه اللحظة، لكني أجبته تأدبا مني:

- «أنا بخير والحمد لله»..

ثم فرض عليَّ فضولي أن أسأله:

- «هل أعرفك؟»..

فأجابني بابتسامة ملء فمه:

- «لهذا أتيت إليك»..

لم أعلق على كلام لم أفهمه بعدُ وانتظرت شرحا أكثر تفصيلا فلم يبخل قائلا:

- «لقد سمعت عنك الكثير، والناس هنا يمتدحون طيبتك ودماثة خلقك».

أي ناس هؤلاء الذين يمتدحونني؟ أنا لا أعرفهم فكيف يعرفونني هم؟ اعتلت وجهي تعبيرات الدهشة البالغة وخشيت من طول صمتي أن أكون قد نسيت الكلام فسألته متبينا:

- «هل أنت واثق من أنك لم تخطئ مقصدك؟»..

فعاد ليبتسم ابتسامة عريضة تكشف عن أسنانه البيضاء أتبعها بقوله:

- «تواضعك هذا يؤكد لي ما سمعت»..

حاولت استجماع بعض الكلمات الهاربة لأكوِّن جملة مفيدة قد تعبر عن دهشتي لكن كلماتي خانتني، فلم يمهلني هو لأقول شيئا بأن أنهى حواره قائلا:

- «أنا الشيخ أنس بن يعقوب، خطيب وإمام هذا المسجد، وسنتقابل معا مجددا إن شاء الله، ما دام طريقنا واحدا»..

فأردت إنهاء الحوار أنا أيضا فرددت:
- «بالتأكيد، إن شاء الله»..
وتجاهلت سؤاله عن هذا الطريق الذي قد يجمع بيني وبينه.
كان «تامر» خلف الشيخ يراقب المشهد عن كثب، فلما نهض الشيخ هرول «تامر» نحوي وهو يقول:
- «ماذا أراد منك هذا الرجل؟»..
- «لا شيء يا تامر، مجرد حديث ودي بغرض التعارف»..
تبعه «تامر» بنظرة سريعة قبل أن يقول:
- «خذ حذرك، وانتبه لهذا الرجل جيدا»..
لا أفهم قلق «تامر» هذا، فأردت استيضاح الأمر فسألته:
- «ولِمَ كل هذا القلق يا تامر؟»..
شرع «تامر» في قص القصة التي شهدها بنفسه:
- «لقد ظهر هذا الشيخ في المنطقة فجأة مع مجموعة من رفقائه أصحاب اللحى والجلابيب القصيرة، وأخذوا جولة بالمنطقة، وكان الوقت حينها وقت صلاة العشاء فكانوا كلما مروا بأحد دعوه للقدوم إلى الصلاة والاستماع إلى حديثهم بعدها»..
فرددت متعجبا:
- «لا أجد في حديثك ما يدعو إلى هذا القلق!»..
لكن «تامر» استطرد موضحا:
- «يا أستاذ مروان، لقد مكثوا بالمنطقة، على الرغم من أنهم ليسوا من سكانها، ولا أحد يعلم بأي أرض يسكنون، وواظبوا على الصلاة في هذا المسجد تحديدا، بل إنهم صاروا أول من يدخلونه بعد الشيخ عبد الرحمن، إلى أن أتى الوقت الذي هاجموا فيه الشيخ عبد الرحمن وطعنوا في علمه ثم إسلامه، والغريب أن أهل المنطقة دعموهم وقدموا شكوى لوزارة الأوقاف، ولم يمض وقت طويل قبل أن يرحل الشيخ عبد الرحمن عن المسجد ويحل

محله هذا الرجل. وها هو ورفاقه قد صاروا حكاما للمنطقة، يأمرون فيطيع الناس إما حبا وإما كرها، هؤلاء هم السلالة المتطورة من الإرهابيين الذين قتلوا الناس في الثمانينات»..

كان حديث «تامر» جديرا بالاهتمام بحق، فأنا أيضا لم أشعر بالارتياح تجاه هذا الرجل، وإن كنت لا أتفق معه في الجزء المتعلق بتسميتهم إرهابيين، وهو ما يجب استبعاده، هم فقط أصحاب مذهب مختلف، لكني تجاهلت التفكير في الموضوع برمته، فما بالي أنا بهذا الأمر كله؟ فأنا لا أعرف الرجل ولا أرغب في مصادقته، كما أنني راحل عن «الزلزال» ومن فيها.

كل شيء يربطني بـ«الزلزال» سأقطعه من دابره، كل شخص عرفته في هذا المكان سأمحوه إلى الأبد من ذاكرتي، لا أريد لهذا المكان أن يعلق بذاكرتي مع مرور الأيام.

لم يعد هناك ما يربطني بـ«الزلزال» إلا صاحبة الشقة، «مديحة»؛ لذا فعليَّ أن أذهب للقائها كي أنهي شيئا ما كان له أن يبدأ.

فريدة

نهضت من مكاني منفعلة بعينين بارزتين في غضب وأنا أقول:
- «ماذا تقولين؟ أعيدي ما قلتِه لتوِّك مجددا»..
اصفر وجه «سماح» المسكينة وهي تحاول استجماع شجاعتها التي انهارت أمام غضبي وهي تقول:
- «كنت أقول لك: إن أرملة أبيك تستقبل رجلا ببيتها بمفردها»..
ازداد انفعالي وأنا أقول:
- «وكيف علمت ذلك؟ قد تكونين مخطئة أو حتى تختلقين هذه القصص!»..
- «يا سيدتي، لقد لاحظت مؤخرا أنها تطلب مني الانصراف في غير موعدي، حتى عندما أكون مشغولة في أمر من أمور البيت، كانت تنهاني عن إكماله على أن تكمله هي في وقت لاحق، حتى ذلك اليوم الذي هبطت فيه الدرج بعد أن طلبت مني الانصراف فجأة، وإذا بي ألحظ توقف المصعد في الطابق الرابع حيث شقتها، اختلست النظر من فوق الدرج فشاهدت رجلا خرجت لتختطفه إلى الداخل قبل أن يلحظه واحد من السكان»..
ثم قالت في أسى المجروح كرامته:
- «بإمكانك أن تذهبي الآن لتتأكدي من كلامي؛ فهو الآن في شقتها»..
طلبت منها الانصراف بعد أن أقسمت على ألا تحدث أحدا آخر بهذا الشأن.
شغلني حديث «سماح» كثيرا، وأثار في نفسي حنقا لا يوصف تجاه تلك المرأة الحقيرة، التي لم تحفظ روح أبي الذي ما زالت عالقة ببيتها وحوَّلته إلى ماخور تستقبل فيه الغرباء من الرجال.

لم أتردد ولو للحظة قبل أن ألتقط حقيبتي تاركة المنزل باتجاه منزل العاهرة، سألتني أمي عن سبب نزولي هكذا على حين فجأة، لكني تحججت بحجة من شدة كذبها لا أذكرها.

كان غضبي هو ما يسرع خطاي تجاه شقة والدي التي تزوج فيها زوجته الثانية قبل أن ينفضح أمر هذا الزواج لدى والدتي فتطلب الطلاق منه.

لا أخفي غضبي وحنقي على تلك المرأة التي هدمت أسرة كانت لتعيش حياتها سعيدة من دونها، لكني مع ذلك أجد نفسي مسئولة عن الحفاظ على عرض أبي وشرفه حتى بعد وفاته، وهو الذي كان قد أوصاني بها قبل وفاته، كم أنت مسكين أيها العجوز!

دخلت العمارة التي بها شقة والدي الثانية وصعدت الدرج حتى وصلت إلى الطابق المقصود، لكني وجدت الباب غير موصد فانتابني القلق وترددت قليلا قبل أن أُخرج مسدسي الذي لا يفارق حقيبتي، ودفعت به الباب برفق، فلم أرَ أحدا، فتقدمت بهدوء إلى الداخل حتى وصلت إلى غرفة نومها المفتوحة على مصراعيها فإذا بي أرى «مروان».. خطيبي في أحضان أرملة أبي عاريين على فراش أبي.

لم أشعر بيدي وهي تضغط على الزناد لتفجر رأس «مروان» الذي سقط عن الفراش على أرضية الغرفة محاطا بدمه، قبل أن ألتفت نحو العاهرة لأقتلها بثلاث طلقات متفرقة في الصدر والرأس لأكسو فراشها بلون دمها القذر.

ثم خرجت من الشقة غير عابئة بشيء، لا يغمرني أي إحساس بالندم، لا أشعر بما يبكيني على من أحببت يوما وانتظرت زواجي منه، كنت أشعر براحة لم أعهدها من قبل، ربما كان هذا بدافع الرغبة الكامنة بداخلي في الانتقام من تلك المرأة التي خطفت والدي من قبل.

لست أشعر بالحزن عليك يا «مروان»، لست أشعر بخسارتك، فأنا لم أخسرك، بل أنت من استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، فلتحترق بصحبة العاهرة في الجحيم لعلها تؤنس وحشتك هناك.

زيزو

كيف ينام هؤلاء ليلا على فراشهم الدافئ في أحضان زوجاتهم بلا أدنى شعور بالذنب؟ أتساءل: كيف يكون إحساس حامي الوطن وقد قتل أبناءه؟

أمضيت أياما أشاهد الفيديو الذي صورته داخل القسم لضباطه وهم يقسمون المخدرات التي حرزوها تمهيدا لبيع ما لن يتم إدراجه في المحضر المحرر للجناة.. مستغلا في ذلك تقربي منهم واطمئنانهم إليّ؛ فهم ينظرون إلى هذا الفتى الفقير الذي يعمل في محل البقالة بمنطقة شعبية من أجل سد رمق جوعه على أنه بلا قيمة، مجرد شخص تافه لا يدعو إلى القلق.

حتى إنهم جعلوني أنا من أصورهم وهم يفعلون ذلك باستخدام هاتف أحدهم المحمول فيما تبادلوا هم الضحكات والإفيهات قبل أن أسرق هذا الفيديو من هاتفه باستخدام «البلوتوث».

ضميري الحي يحدثني بأن هذا الفيديو أمانة لا يسعني إخفاؤها، لكني فقير بلا سند، سيقتلونني بهدوء غير عابئين بهذا التافه الذي لن يلحظ وفاته أحد، ولن يفتقده أحد كذلك.

لن أتردد في قول كلمة الحق، لن أنام هانئا ما دمت أكتمها؛ لذا فقد قررت أن أضع هذا الفيديو على الإنترنت ليراه العالم كله فينتبه ولاة الأمر إلى فساد هؤلاء فينزعون عنهم شاراتهم التي لا يستحقونها.

حاولت توخي الحيطة والحذر حتى لا ينفضح أمري لديهم، فقررت أن أقوم بتلك المهمة من سايبر في المرج، حيث يفصل بيننا وبينها الكثير من محطات المترو بعد أن اختلقت حسابا وهميا على «اليوتيوب».

أمضيت ثلاثة أيام من القلق الدائم أنتظر تلك الساعة التي سيهجمون فيها عليَّ فينتزعونني من المحل ليوسعوني ضربا قبل أن ينقلوني إلى القسم لإكمال عملية التعذيب الجسدي التي لا يجيدون شيئا من عملهم بقدر ما يجيدونها.

لكن شيئا لم يحدث، لم يأتِ أحدهم، ومشاهدات الفيديو تزداد يوما بعد يوم، حتى إن بعض القنوات الفضائية عرضته على شاشاتها، لكن دون تغيير يذكر، فلم يحاسَب أبطال الفيديو على جريمتهم، وأيضا لم أتعرض أنا لأي مضايقات أو أدنى محاولة للاعتقال أو حتى القتل!

أشرقت شمس صباح جديد فاتجهت إلى عملي كعادتي كل يوم، شعور بالطمأنينة يغمر نفسي المرعوبة، فبعد مُضي أسبوع آمن، لا يمكن أن يتم التعرض إليَّ الآن.

فتحت المحل وشرعت في تنظيفه وترتيبه كما اعتدت أن أفعل كل يوم، وبعد قرابة الساعة كنت قد انتهيت من تنظيف المحل وترتيب بضاعته وشرعت في تدخين سيجارة حين رأيت مجموعة الملتحين أصحاب الجلابيب البيضاء تهرول في تجاه المحل ويبدو على ملامحهم شر يخفونه لا يتناسب مع لحاهم.

اندفع نحوي أحدهم فجذبني من ياقة قميصي المهترئة قبل أن يسحبني نحو الساحة الخالية وسط ذهول بعض السيدات اللاتي تابعن المشهد من منازلهن فيما صرخ أحدهم قائلا:

- «آن لشرع الله أن يسود، لن نصبر على انتهاك شرع الله في أرضه، لن نصمت عن تطبيق حدوده»..

ثم قال بصوت جهوري:

- « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»..

ثم شرعوا في حفر حفرة وسط الساحة، فيما بدأ الممسك بي في تقييد يدي

خلف ظهري. كل هذا وأنا لا أكاد أستوعب ما يحدث من حولي، فأنا حتى لا أقاوم!

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يلقوا بي في الحفرة ويبدأوا في إلقاء الرمال عليَّ بداخلها وسط صراخ النساء وبكاء الأطفال الذين هرولوا إلى داخل منازلهم، حينها فقط شعرت بحجم الخطر الذي يحيط بي، فحاولت الخروج منها، لكن أحدهم أمسك بي بقوة فيما استمر الباقون في دفع التراب حتى صار الجزء السفلي من جسدي مدفونا تحت الأرض.

حينها صرخ واحد منهم بصوت جهوري:

- «الرجم للزاني»..

من يقصدون بالزاني؟ أنا لم أزنِ!

التقط واحد منهم حجرا كبيرا وقذفني به فارتطم بصدري فآلمني بقوة، ثم تبعه من معه فصار كل واحد منهم يلتقط حجرا ويقذفني به، فحجر يسيل الدم من رأسي، وآخر يخلع كتفي. والسكان يشاهدون المشهد دون أن يحرك أحدهم ساكنا، أو حتى يحاول صدهم عني بكلمة أو أن يصرخ أحدهم بهَتْكهم لشرع يدعون تطبيقه.

استسلمت بعد صرخات مستغيثة لم تجد لها صدى بداخل من شاهدوا المشهد، ولم أعد أرغب في المقاومة، فأنا أستحق العقاب، حتى إن كان العقاب على ذنب لم أقترفه، لكن ما الفارق؟ أظل مذنبا على الرغم من ذلك.. فأنا من شوَّهت سمعة «سماح» المسكينة لمجرد عجزي عن الزواج بها، لم أكن لأحتمل أبدا أن تكون «سماح» زوجة لرجل آخر.. رجل لم يحبها حتما كما أحببتها أنا.

سماح

كان تعاقب محطات المترو في طريق العودة كفيلا بإتاحة الفرصة للنظر فيما مضى من رحلة حياتي التي لم تكن يوما سعيدة.

ها أنا أصل الآن إلى سن الثامنة والعشرين وما زلت عذراء، الكل يشير نحوي وكأني مدعاة للنظر وأخذ العظة.. لا يخلو الحديث الدائر في أي منزل بـ«الزلزال» من الإشارة إلى تلك الفتاة التي تزوجت ثم تطلقت بعد يومين فقط، البعض يذهب إلى الظن بأنها لم تكن عذراء ساعة الزواج. ولا أحد يعلم أن زوجي كان مريضا بالإيدز ولم يصارحني بالأمر إلا بعد أن صرت زوجة له، وكان ينتظر مني تقبل الأمر!

كان صمتي هو الثمن الذي دفعته في مقابل حريتي.

كيف أمحو عن ذاكرتهم حادثا دمَّر حياتي؟ كيف أتوقع من أحدهم أن يرغب في الزواج مني بعد أن قتل العار والدي العجوز المسكين؟ أيامي المتبقية في الدنيا لا تعدو كونها مجرد عدد لا بد أن أعيشه قانعة صامتة.

لكن واحدا من هؤلاء كان مختلفا، كان فقيرا وكأن هذا شيء يعيبه، لكنه كذلك بالنسبة لأهلي الذين رفضوه حين تقدم لخطبتي قبل زواجي من ابن عمي، لكن لِمَ لم يعاود «زيزو» المحاولة بعد طلاقي؟ هو بالقطع بريء من الظن بأنه يرفض الزواج من فتاة لُوِّثت بسمعة طلاقها المبكر، أو ربما يرفض أن يحمل عني هذا الإثم فيحسبه الناس عشيقي الذي أفقدني عذريتي ومن ثم تسبب في طلاقي.. فهو لم يتزوج بعدها، ولم يحاول حتى، كما أن نظراته إليَّ لم تتغير قط!

هل يتوقع مني أن أذهب لأطلب منه الزواج، أم أنه يرتقي بي فوق استغلال الفرص وزواج الستر؟
لا أعلم، لكن قد يأتي يوم ما يعيد فيه المحاولة، أو حتى يصارحني بما في نفسه. حينها سأغفر له صمته وأبدأ معه حياة جديدة، فأنا وإن كنت قد سُلبت حق الاختيار إلا أنني لو استعدت هذا الحق لاخترته هو دون غيره.
حين خطوت خطواتي الأخيرة إلى داخل «الزلزال»، سمعت صدمات تتبعها تأوهات وصراخ نساء كمن فقدن بعولهن.. تقدمت في طريقي حتى رأيت مجموعة الملتحين هؤلاء يقفون ممسكين ببعض الأحجار التي يلقون بها الواحد تلو الآخر، فلما رآني أحدهم أشار بسبابته تجاهي وهو يقول صارخا:
- «وها هي الفاجرة قد أتت، أقيموا الحد على الفاجرة»..
كان «تامر» أخي يقف خائفا داخل شرفة منزلنا لا يقوى على التدخل فلما رأى منهم إشارتهم نظر تجاهي فعلم أنهم يقصدونني أنا، فقفز من شرفتنا بالدور الأرضي وركض نحوي كي يحميني منهم، فضربه واحد منهم بعصا غليظة يحملها بيده فوق رأس «تامر» فسقط صريعا.
جذبني اثنان منهم وسط صدمتي التي أفقدتني النطق، كنت فقط أنظر نحو أخي وقد استقر على الأرض دون حراك، ثم أنظر إلى وجوه من يمسكون بي، حتى اقتربوا بي من الساحة فوجدت واحدا كانوا قد دفنوا نصفه السفلي تحت الأرض وكسا الدم نصفه العلوي فتشوهت ملامحه.
قيدوني وألقوني بحفرة كانوا قد حفروها مسبقا إلى جوار الشخص المغطى بالدم ثم أهالوا التراب فوقي وأنا لا أقوى على النطق بكلمة دفاع أو حتى سؤال.
لم أكن أرى سوى نساء يصرخن ورجال يخفون وجوههم، وحين حاول واحد منهم التدخل للدفاع عني ضربوه بعصيهم حتى كادوا يقتلونه، ثم صاح أحدهم بصوت جهوري:
- « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

الظَّالِمُونَ».

رددها مرتين قبل أن يلتقط حجرا من الأرض تمهيدا لقذفي به.

الشيخ عبد الرحمن

كيف استبدل الناس العقل بالزي، فصار من يحرص على ارتداء الجلباب الأبيض ويطيل لحيته أقرب إلى الله ممن لا يفعل؟ متى تحول العلم والدراسة والاجتهاد إلى مجرد دروس داخل المساجد منقولة عن بعض الشيوخ الذين نقلوها عمن سبقوهم من أمثالهم؟

إلى أي مدى سيشوه هؤلاء دين الله؟ إلى أي مدى سيضلون عباده عن الصراط المستقيم؟ هؤلاء لا يبتغون دين الله، بل يبتغون متاع الدنيا باسم الدين، يتزوجون من ثلاث ويبدلون الرابعة كلما اشتهت أعينهم امرأة أخرى، ثم يحدثون الناس عن تكريم الإسلام للمرأة!

يسكنون القصور ويركبون أفخم أنواع السيارات ثم يحدثون الناس عن الزهد!

كان صوت الهاتف كفيلا بالإجابة عن تساؤلاتي، كان صوت المتصل المستغيث:

- «أغثنا يا شيخ عبد الرحمن، إنهم يقتلون شابا وفتاة دون ذنب، ولا أحد يملك منعهم»..

خرجت من بيتي مسرعا أريد أن أطير إلى «الزلزال» لأمنع شيئا آمل ألا يكون الله قد قدَّر حدوثه، حين وصلت كان هؤلاء قد دفنوا النصف السفلي لشاب كسا الدم نصفه العلوي وشوَّه ملامحه، وفتاة لم تنزف نقطة دم واحدة لكنها بدت وكأنها ميتة.. بخلاف الشاب الذي وجدته ملقى في وسط الطريق.

ركضت نحوهما وأنا أردد في فزع لم أعهده مسبقا:
- «ماذا فعلتم؟ ما هذا الذي ارتكبتموه؟».
ألقيت نظرة على الشاب وكان قد فارق الحياة، فهرولت إلى الفتاة فكانت قد فارقت الحياة هي الأخرى، لكن يبدو أنهم لم يتمكنوا من قتلها فقد سبقهم الموت إليها، فهي في الغالب لم تحتمل هول الصدمة.
التفتُّ نحوهم وصرخت فيهم في غضب:
- «ماذا بحق الله فعلتم؟»..
فالتفت كل منهم نحو الآخر وكأنه لا يعلم إن كان عليه أن يجيبني أم يقتلني أنا الآخر، لكن أحدهم - وقد كان إمام المسجد الذي خلفني - تطوَّع ليقول في لهجة تهديد مستترة:
- «لقد طبقنا شرع الله يا شيخ عبد الرحمن.. هل تريد أن تعارض تنفيذ شرع الله؟!»..
قال جملته الأخيرة بصرخة من يريد للناس سماعها وهو يلتفت بعينيه في أعالي البيوت.
فارتفع صوتي بغضب لم يعد بإمكاني كظمه وأنا أقول:
- «أي شرع هذا الذي تتحدث عنه؟».
فأجابني بانفعال بدا واضحا في احمرار عينيه ورذاذ البصاق المتناثر من فمه:
- «شرع الله يا شيخ عبد الرحمن، لقد زنا هذان فطبقنا عليهما حد الزنا»..
فدوى صوتي في أرجاء «الزلزال» قائلا:
- «ومن أعطاكم سلطة معاقبتهما؟»..
فجأة خفتت حدة انفعاله وهو يجيب في ضجر:
- «لقد امتنع ولاة الأمر عن إقامة حدود الله، فهل تريد منا الصمت على انتهاكها؟»..
ثم أتبع بصوت جهوري يهز أرجاء «الزلزال» ليعيد إلى سكانها ذكريات الحادث الذي أتى بهم إلى هنا:

- «حدٌّ يُقَامُ فِي الأرض خَيرٌ لأهل الأرض من أَنْ يُمطَرُوا ثلاثين صَباحا».
- «ومن قال لك إن حد الزنا في الإسلام هو الرجم؟ ثم من قال إن هذين قد زنيا بالأساس؟»..
التفت نحو رفاقه وهو يقول بصوت منخفض ينم عن ضعف حجته:
- «لقد علمنا بأمر زناهما»..
كان شيطان غضبي يوسوس لي بأن أنتزع من الأرض حجرا فأضربه به حتى أهشم رأسه، لكني أردت للناس أن يعلموا أن هؤلاء القوم لضالون:
- «هل هناك من شهد على هذا الزنا؟»..
فأجابني في سخرية:
- «وهل سيزنيان أمام الناس؟»..
فرددت الآية الكريمة بصوت يسمعه المتابعون:
- «(وَاللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلا * وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا).. أليس هذا هو شرع الله؟ من أين أتيتم بما فعلتم هذا؟»..
رفعت بصري نحو هؤلاء الذين قبعوا بالشرفات مكتفين بالمشاهدة، أخذت دورة كاملة ببصري في الشرفات المحيطة بالساحة.. وجدت الرجال والنساء، الجميع يشاهد، لِمَ لم يحاول أحدهم منع هؤلاء؟ لقد كانوا عزل إلا من بضع عصي لا تسمن ولا تغني من جوع!
فهمت حينها من القاتل الحقيقي، إنه الخوف.. الخوف من الموت، الخوف من إعمال العقل، الخوف من أي شيء قد يجلب الخوف.
تركتهم ومضيت في طريقي وأنا اردد في ألم:
- «حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل، حسبي الله ونعم الوكيل»..

الله وحده يعلم من منا يفتن الناس في دينهم، بل يستبدل به دينا آخر لا صلة له بالإسلام.. هؤلاء ليسوا إلا نتاجا لفكر متشدد ضرب بجذوره في الأراضي المكية ثم نفث سمه في أراضينا، يحللون التعصب باسم الجزية، ويبيحون العنف باسم الحدود، والإسلام بريء منهم ومن تعصبهم الباطل وعنفهم الأعمى.

الشيخ أنس

صدمت وجهي المياه التي قذفها الشاويش من السطل الذي يحمله، فأيقظتني من نومي مفزوعا لأعود مجددا إلى أرض الواقع الذي اجتهدت طويلا في الهروب منه إلى أحلام وردية جمعتني بأهلي وإخوتي حيث كان بإمكاني حينها أن أرى الأسفلت، لم أكن أتصور أبدا أن يأتي اليوم الذي يعد فيه الأسفلت حلما لا يمكن إدراكه.

- «انهض أيها المخنث»..

كان هذا صوت الشاويش الغاضب دوما دون سبب واضح قبل أن يتقدم ليمسك بي في قوة من ذراعي التي لم تكن تقوى على المقاومة من فرط الضربات التي احتملتها.. سحبني الشاويش نحو مكتب الضابط الذي كان قد أمر الشاويش بإحضاري إليه فأشار له الضابط بالانصراف بعد أن أدى له التحية.

- «كيف حالك يا أنس؟»..

حينها انتابتني الشكوك حول كفاءة أذنيَّ، فلم يكن جائزا أن يسألني الضابط الذي يشرف يوميا على تعذيبي عن حالي! وماذا يقصد بحالي على أي حال؟ هل يقصد حالي بعد صعقي بالكهرباء أم حالي بعد أن تحرشت بي كلابه جنسيا، أم يقصد حالي بعد أن...؟ لا يهم، فالحال واحد.

لم يدع لي الضابط فرصة للبحث عن إجابة لن تسعفني شفتاي المرتعدتان في نطقها، فأكمل حديثه الودي على غير العادة قائلا:

- «أنا أعلم ما بداخلك من ناحيتنا، لكن صدقني، لم نفعل هذا إلا من

أجلك.. لقد أضلك هؤلاء وأبعدوك عن طريق الحق، سبحانه وتعالى، لكن ها نحن نبدأ من جديد، نحن نمنحك الفرصة كي تبدأ حياة جديدة»..

نهض الضابط من مكانه ممسكا بسيجارته المستوردة ودار من حولي حتى ظننت أنه سيطفئ سيجارته المشتعلة بجسدي كما اعتاد أن يفعل منذ اللحظة التي حضرت فيها إلى هنا، لكنه لم يفعل هذه المرة.

- «أنا أعلم أنك لن تصدقني حين أقول لك إننا حريصون على نشر الدعوة، وما فعلنا ما فعلناه إلا خوفا عليها من أولئك الذين تلاعبوا بكم من أجل مصالحهم الشخصية، لكن إن تعاونت معنا فستخرج من هنا لتكمل مسيرة الدعوة.. فهل أنت مستعد للتعاون معنا يا شيخ أنس؟»..

وهل كان لي الخيرة من أمري؟ هل كنت أملك أن أعارض الضابط الذي أذاقني ويلات التعذيب أنا ورفاقي لمدة تزيد على العام من دون تهمة؟

وهكذا انتهى بي الأمر إلى ما أنا عليه الآن، عصا غليظة في يده يبطش بها من لا يقوى على البطش به بطريقته التي يألفها.

وتدور الأيام، فأقف بين يدي ضابط آخر يستغلني كما استغلني سابقوه؛ فبنود الصفقة ثابتة لا تقبل التعديل من جانبي. أشعل الضابط سيجارته وهو يجلس إلى مكتبه قبل أن يقول شائحا ببصره الذي يخشى أن يلوثه بالنظر لي:

- «هل كل شيء على ما يرام؟»..

قالها بلهجة صارمة حازمة كبصمة تميز كل رجال الشرطة الذين اعتدت التعامل معهم بشكل أو بآخر.

- «أجل يا سيدي، أنهينا المهمة على أكمل وجه، لكن...»..

اصفر وجه الضابط ونهض من مكانه وهو يسأل بعينين براقتين تنمان عن شر يقف على أهبة الاستعداد:

- «لكن ماذا؟»..

كنت في حيرة من أمري، فأنا أخشى غضبه إن أخبرته، وأخشى غضبه أيضا

إن أخفيت عنه الأمر، لكني فضلت أن أصارحه الآن قبل أن يكتشف فيما بعد..
- «بعد أن أنهينا كل شيء ظهر الشيخ عبد الرحمن هذا على حين فجأة واشتعل جداله الأحمق مجددا، لقد بدا تعاطف الناس معه واضحا، ولا أظن أن الناس سينصتون لنا بعد هذا اليوم»..
جلس الضابط وقد بدا عليه الهدوء خلافا لما توقعت ثم قال بلهجة واثقة بعد أن عاد لنفث دخانه مجددا:
- «لا تشغل بالك بهذا الرجل، كل ما يحتاجه الأمر هو بعض الشائعات ليس إلا»..
حمدت الله على رد فعله الهادئ فلم أعد قادرا على احتمال ما احتملته في السابق.
- «حسنا يا سيدي، هل هناك أوامر أخرى؟»..
- «في الوقت الحالي، لا.. لكن احرصوا على تهدئة الأجواء وابتعدوا عن استخدام العنف، وفي الوقت ذاته أكثروا من الحديث عن الآخرة وضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اجعلوا الناس يركعون تحت أحذيتكم ظنا منهم أنكم حافظوهم من عذاب الآخرة»..
من مزّقوا المصاحف وأجبرونا على الطواف حول صورة حاكم البلاد صاروا يملون علينا ديننا الآن دون أدنى اعتراض منا.
- «حسنا يا سيدي، لكن لديَّ سؤالا آمل ألا يضايقك»..
أعاد ظهره إلى الخلف وهو يشير بالإذن في غرور مستمد من مكتبه الكبير.
- «ألم يكن من الأسهل والأفضل أن يقوم رجالك بتصفية هؤلاء، أو حتى أن يدبّر لهم حادث ما؟ لم يكن أحد ليكتشف أمرا من صنعكم»..
ابتسم ابتسامة ساخرة قبل أن يقول في امتعاض:
- «سأجيبك»..
ثم سحب نفسا عميقا من سيجارته قبل أن يقول في زهو:

- «لم يكن علينا صبغ العملية بشبهة جنائية، حتى إن دبرنا حادثا وهميا سيقوم أحدهم بالربط بين الحادث والفيديو أو غيره، لم نكن نريد أن نقحم أنفسنا في عملية اغتيال تضيف إلينا عبئا جديدا»..

فقلت في استكانة المهانة وبصر خاضع:

- «حسنا»..

صمتُّ قليلا قبل أن أعود لأقول:

- «لديَّ سؤال آخر»..

وضح عليه الامتعاض وهو يقول في ضجر قبل أن يطفئ سيجارته وتلمع عيناه:

- «كثرت أسئلتك مؤخرا يا شيخ أنس»..

فقلت في توتر بدا جليا في كلماتي:

- «أنا آسف يا سيدي، لكن لأكون على علم فقط»..

فقال بامتعاض:

- «حسنا، هات ما عندك».

- «لِمَ قتلنا سماح؟ أنا أتفهم قتلنا للفتى الذي أفشى سرنا، وأتفهم أيضا تحريضنا لسماح كي تبلغ عن مروان الذي حاول فضح الأمر بما عثر عليه، لكن سماح! لِمَ؟»..

- «كان علينا أن نخفي كل تفصيلة تخص هذا الأمر، ليس فقط سماح بل وحتى مديحة، ليس علينا القلق بشأن فلان أو علان الذي قد يقوم بربط الأحداث فيستنتج المتسبب فيها، لا نريد أن نغلق أبوابا لنفتح أخرى يا شيخ أنس»..

كان الشر ممزوجا بكلامه كشيطان قد انتصر على عبد صالح فأغواه وأضله السبيل.. ثم أظهر انشغاله ببعض الأعمال وهو يسأل:

- «هل لديك أي أسئلة أخرى يا شيخ أنس؟»..

فأجبته في خضوع وخوف:

- «كلا يا سيدي، السلام عليكم»..

ثم غادرت مكتبه الذي ينقبض قلبي كلما دخلته، وكأني أستعيد بذاكرتي الأيام التي قضيتها في المعتقل؛ حيث اختبرت كل أنواع العذاب.

ما مضي لن يعود ..

سيمون

كنت أسير في شوارع المدينة الفلسطينية غزة بصحبة صديقي الصحفي الفلسطيني أنيس سعدون الذي يعمل مراسلا لجريدة «لوموند» الفرنسية التي صرت كاتبة مرموقة بها. كان «أنيس» هو مرشدي داخل هذه البلدة الغامضة، وقد وعدني بترتيب لقاء بيني وبين الشيخ إسماعيل الحنبلي، المعروف بأنه الرجل الثاني داخل كتائب عز الدين القسام، الجناح العسكري لحركة حماس.

كان هذا اللقاء ضمن سلسلة لقاءات مرتقبة أعددت بها قائمة في أثناء رحلتي من فرنسا إلى فلسطين بنية إعداد كتاب عن الصراع العربي - الإسرائيلي، على أن يساعدني «أنيس» في ترتيب هذه اللقاءات لما هو معروف به من علاقات تجمعه بقيادات المقاومة الفلسطينية.

فلسطين لا تتعدى كونها جزءا من الصراع؛ لذا فكان عليَّ البدء منها حيث بدأ كل شيء هنا، لكن عليَّ أيضا أن أذهب إلى سوريا، لبنان ومصر ودول أخرى جمعتها حروب أو نزاعات بإسرائيل، ودول تجمعها علاقات مباشرة مع إسرائيل مثل قطر أو هكذا يقال، وأخرى ما زالت مصرة على عدم الاعتراف بوجودها مثل الجزائر، ليبيا والعراق.

إنها حقا رحلة طويلة، لكنها الأهم في حياتي، وهذا ما حلمت به دائما.. كتاب يشرح للعالم طبيعة صراع لم يقدَّم بصورة صحيحة إليه.. دائما هناك جزء ناقص، أو ربما تعمد البعض أن يكون ناقصا.

حين وصلنا إلى موقع اللقاء لاحظت أن الشيخ إسماعيل لم يأتِ بمفرده؛ فهو

يتحرك في موكب، شأنه في ذلك شأن المسئولين في الحكومات.. كان هناك رجلان مسلحان في أول الشارع، واثنان آخران أمام المنزل الذي اتفقنا على اللقاء به وكان ملكا لصديق له.. وآخرون داخله، وفوق سطحه.. كانت الترتيبات الأمنية توحي بأهمية الشيخ إسماعيل، وهذا تماما ما أردت التأكد منه فأنا لا أعرف الكثير عنه.

أكثر ما لفت انتباهي في حرس الشيخ إسماعيل وجود فتاة بينهم. كانت ترتدي ملابس تشبه تلك التي يرتديها زملاؤها من الرجال، ملابس أقرب ما تكون إلى الزي العسكري وشال فلسطيني يخفي أسفله جمال شعرها الأسود.

حاولت ألا أعلق على هذا الأمر فور رؤيته وشرعت في إجراء الحوار مع الشيخ إسماعيل بعد تبادل التحية والتعارف وبعد أن لاقيت المعتاد من كرم الضيافة الفلسطيني.

- «شيخ إسماعيل، ما الهدف من هذه المقاومة الشرسة للوجود الإسرائيلي؟ هل تهدفون إلى إنهاء الوجود الإسرائيلي مثلا؟»..

ضحك الشيخ إسماعيل ساخرا وهو يقول:

- «الشرسة! سيدتي، إن كانت مقاومتنا هذه شرسة كما تصفينها لما كنا صرنا عاجزين عن انتزاع حقنا في أراضينا، إننا لا نطمع في أكثر من العودة إلى حدود ١٩٦٧، ولا أظن أن هذا كثير»..

- «لكن هذا يعد مخالفا لتصريحاتكم السابقة بهذا الصدد!»..

- «إسرائيل صارت أمرا واقعا، لا مناص من الاعتراف بوجوده، لكن نحن أيضا لنا الحق في الوجود إلى جوارها، فنحن في النهاية أصحاب الأرض؛ لذا فنحن نرهن اعترافنا بهذا الوجود الإسرائيلي بالعودة إلى حدود ١٩٦٧»..

- «شيخ إسماعيل، أنتم تلومون إسرائيل بشكل يومي على قتل المدنيين الأبرياء من الفلسطينيين، ألا تفعلون الشيء ذاته بأيديكم؟ ألا تقتلون المدنيين الإسرائيليين بصواريخكم؟»..

- «نحن لا نستهدف المدنيين أبدا...»..
فقاطعته قائلة بانفعال:
- «سيدي، لقد نفذتم عمليات تستهدف المدنيين بشكل مباشر وهذا مثبت من قبل منظمة هيومان رايتس ووتش»..
- «هذا كله هو محض افتراء، نحن لم ولن نستهدف المدنيين بأي شكل من الأشكال، وهذه مجرد محاولات لإلباسنا لباس الإرهاب الذي لطالما تبرأنا منه»..
التفتُّ نحو الفتاة صاحبة الزي العسكري بين أفراد طاقم حراسته وأنا أقول:
- «أليس غريبا يا سيد إسماعيل في مجتمع شرقي كهذا أن تشارك الفتيات في حمل السلاح والقتال وهن في بعض بلاد الشرق المستقرة يُحرمن من ممارسة حقهن في العمل؟»..
- «هنا في فلسطين الواقع مختلف، جميعنا شركاء في هذا البلاء، يتضرر الرجال كما تتضرر النساء بالقدر ذاته، جميعنا معرَّضون للقتل والأسر، جميعنا لا نملك حياتنا، وحياتنا ملك للوطن»..
ثم تابع وهو يشير نحوها بيده:
- «دعيها هي تروِ لك قصتها»..
ثم ناداها باسمها «خديجة» فاقتربت منه في وقار فأشار لها بالجلوس وهمس لها أن تحكي قصتها.

خديجة

كنا أناسا فقراء، بالكاد نملك قوت يومنا.. فلما اشتد الحصار لم نعد نملكه.
بينما كنت أراقب مشهد النازحين نحو المعبر حدثتني نفسي باللحاق بهم، لعل الوجهة التي يقصدونها تكون أفضل مما نواجهه هنا، أو هي أفضل بالفعل، فلم يكن هناك أسوأ مما نحن فيه.
التفتُّ إلى أمي الغارقة في بحور الماضي بإرادتها تأبى أن تعود إلى شاطئ الواقع وأنا أقول:
- «دعينا نرحل يا أماه، دعينا نذهب إلى المعبر»..
فأجابتني بنظر مثبت نحو الأرض قائلة:
- «ما لنا والمعبر يا ابنتي؟ هذه أرضنا.. عليها وُلدنا وبها نُدفن»..
- «وما لنا هنا يا أماه؟ تلك الأرض ليست لنا، سيأخذونها عاجلا أو آجلا، دعينا نرحل من هنا، دعينا ننقذ ما تبقى من عمر سيفنى اليوم برصاصهم أو غدا من الجوع تحت الحصار»..
- «لن أرحل عن هذه الأرض يا ابنتي، هذه الأرض لنا اليوم وغدا وبعد غد، دعيني أنا أمُت على هذه الأرض فيختلط دمي بترابها فتنبت أزهارا تشهد بحقنا في هذه الأرض»..
- «دعك من هذا الكلام يا أماه، فإن دباباتهم ستدوس أزهارك تلك غير عابئة بها، سأرحل إلى المعبر، فتعالي معي إن شئتِ»..
لم أكن أحتاج الكثير من الوقت حتى أدرك أنني قد تركت أمي وراء ظهري وركضت خلف سراب ينتظرني عند المعبر محملة على ظهر مقطورة لنقل

البضائع مع غيري من الطامحين، أو الطامعين»..
كنت مشغولة بالتفكير في مصير أمي التي لم يكن لها في تلك الدنيا إلا أنا وشجرة الزيتون التي تحفظ ذكريات أمي في القطاع حين لاحت لي سيارة تسير في طريق العودة.
- «من عساه هذا العائد إلا شخص يريد اللحاق بعزرائيل قبل أن يغادر القطاع منتقلا إلى ما تبقى من الأرض الفلسطينية»..
هكذا قال أحدهم حين رد عليه الآخر:
- «إنهم مجموعة من شباب المقاومة يحاولون إقناع الشباب بالعودة للمقاومة والدفاع عن وطنهم، لعنة الله على شبح العمر الذي جعلني أركض هاربا من وطني».
عاوده المتحدث الأول قائلا:
- «ارفق بنفسك يا جدي، عد إلى هناك إن شئت، وستجد الموت ينتظرك في نفس المكان لم يبرح مكانه بعد»..
هم المخاطب العجوز بالوقوف وأخذ يصرخ في السائق ليتوقف كي يلحق برفقائه. وما إن توقفت السيارة حتى أخذ العجوز يتحسس خطواته للنزول منها وسط محاولات حفيده لإقناعه بالعدول عن موقفه، لكن العجوز كان قد حسم أمره.
لم أشعر بنفسي إلا وقدماي تطآن الأرض خلف العجوز الذي اتجه إلى الناحية الأخرى من الطريق وأنا خلفه كي نلحق بالسيارة العائدة إلى القطاع وسط دهشة الجميع وفي مقدمتهم السائق نفسه الذي لم يكن يصدق أننا تركنا مقطورته وقررنا العودة حقا وأخذ يتابع المشهد مع ركابه البائسين.
في طريق العودة سألني العجوز..
- «ما حملك على العودة؟ كنا قد ابتعدنا عن الموت المخيم في القطاع وصرنا قريبين من جنة المعبر!»..
فأجبته وتلك النظرة النادمة في عيني:

- «الموت موجود في كل مكان، الموت يأتي لنا نحن لا للمكان الذي نحتله من الدنيا، ورب العرش يقول: (أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ)»..

حينها قاطعني العجوز قائلا:

- «صدق الله العظيم»..

فتابعت أنا قائلة بأسى:

- «أما جنة المعبر فالجنة في الوطن.. لكن لعنة الله على الشيطان الذي أراد أن يخرجنا منها كما أخرج أبانا آدم من قبلنا»..

لم يجبني العجوز واكتفى بنظرة صامتة كمن عاد إليه أمل خاب مسبقا في حفيده.

أوقفتنا أصوات الانفجارات التي أصمَّت آذاننا فأردت أن أستوضح الأمر حين خرجت مع غيري ممن تركوا السيارة وأخذت أتأمل دخان صواريخهم الذي يحجب الرؤية عن القطاع كالذي يخفيه عن العالم كي لا يرى جرائمهم فيه.

ركضت بأقصى سرعة لديَّ لأقطع المسافة التي تفصلني عن بيت أمي غير آبهة بشيء من حولي، فكل ما كان يجول بخاطري حينها أمي التي تركتها وحيدة تواجه صواريخهم.

ربما حاول بعضهم منعي، ربما حاولوا إيقافي، ربما صرخوا محاولين إثنائي عن الركض في اتجاه القصف، لا أعلم، كل ما كنت أدركه حينها هو أنني ظللت أركض بكل ما لديَّ من قوة وسرعة حتى لاح لي بيتي الذي كان قد تحول إلى قطعة من نار تضيء أمامه شجرة الزيتون المحترقة.

تركت أمي هنا وأنا أعلم أنني أسلمها إلى الموت، ليس على تلك الأرض من هو أحقر مني، حتى شجرة الزيتون تلك كانت أوفى لأمي مني. أبت أن تعيش من دونها فاحترقت معها وأنا التي جبنت!

كانت يده المليئة بالتجاعيد التي ربتت على كتفي وسط بحر دموعي بمثابة

طوق النجاة الذي أعادني إلى الحياة مرة أخرى.
صحبني معه فصرت لا أفارقه، عاملني مثل ابنته، بل إنني لأجزم بأن لو كان له ابنة لقتلتني غيرة مني.. علمني كل شيء، علمني كيف أستخدم السلاح، كل أنواع السلاح، علمني كيف أدافع عن نفسي بيدي المجردتين، عرفني على قادة المقاومة وقد كان يلتقيهم كلما أراد هو.. ثم ألحقني بالمقاومة.
هذا العجوز علمني أشياء كثيرة، بل علّمني كل شيء حين علمني الأمل، لا يأتي سواد الليل دون نور الشمس، لكنه رحل، وتركني وحيدة مجددا، فقد اغتاله الموساد الإسرائيلي وهو العجوز الضعيف الذي لا يملك لنفسه حولا ولا قوة. لم يكن له حراسة، ولم يكن له شأن كبير بين المحيطين به، مجرد رجل عجوز سيموت اليوم أو غدا، وعلى الرغم من ذلك قتلوه. فهم يعلمون تاريخه في المقاومة ودوره البارز فيها حتى بعد أن هرم وصار الموت رفيقا ينتظر موعد اللقاء.

سيمون

في طريق العودة كانت صورة الفتاة المناضلة ذات الشال الفلسطيني التي فقدت أمها لا تفارق خيالي، لكن سيارة محترقة كانت من شأنها أن تجبرني على العودة من خيالاتي تلك إلى أرض الواقع، كانت تلك السيارة هي واحدة من اثنتين حضر فيهما الشيخ إسماعيل للقائي، هذا ما استطاع «أنيس» إدراكه ما إن لاح له طيفهما من بعيد وحتى قبل أن نقترب إلى هذا الحد الكافي لرؤية من بداخلهما، ربما كمواطن فلسطيني اعتاد على رؤية هذه النوعية من المشاهد بشكل شبه يومي، استنتج أن يكون هذا حادث اغتيال للشيخ ومرافقيه.

السيارة الأولى كانت قد احترقت تماما، أما الأخرى فقد استطاعت تفاديها فانحرفت عن طريقها وانقلبت بعيدا عن الطريق.

ركضت أنا و«أنيس» الذي أوقف السيارة وترجل عنها نحاول إنقاذ من بقي من ركاب السيارتين على قيد الحياة.. كان الفزع هو كل ما يسيطر عليَّ حينها.. نعم؛ فحتى الحوادث التي شهدتها بحكم عملي لم يكن يجمعني بضحاياها أي معرفة مسبقة، لكن «خديجة»، تلك الفتاة المناضلة، أحسست أن ما يجمع بيننا أقدم من هذا اليوم الذي التقينا فيه للمرة الأولى.

أخذنا نفتش في السيارة المنقلبة فرأينا بداخلها الشيخ إسماعيل وإلى جواره «خديجة»، عاونت «أنيس» في إخراج الشيخ إسماعيل قبل أن نلتف حول السيارة لنخرج «خديجة» معًا أيضا، لكن من الناحية الأخرى. وحين ألقينا نظرة على السائق وجدناه قد فارق الحياة.

كانت إصابات الشيخ إسماعيل بسيطة وبدا بحال جيد ومدركا لما يحدث من حوله، أما «خديجة» فكانت فاقدة للوعي بشكل تام وبوجهها عدد من الكدمات لكنها ليست مدعاة للقلق.

انطلق «أنيس» بعد أن أملى عليه الشيخ إسماعيل وجهته. فظل يقود بنا داخل عدد من الشوارع التي بدت مخيفة جدا لي؛ فهي لم تكن شوارع بالمعنى الحرفي بل كانت أقرب إلى كونها ثكنات عسكرية من كونها مجرد شوارع. الرجال المسلحون يجوبونها جيئة وذهابا على استحياء، مخفين أسلحتهم بواسطة شالهم الفلسطيني المميز.. لا تُرفع عيناك إلا وتريان رجالا مسلحين آخرين يغطون أسطح المنازل.. وليس بإمكاني أن أجزم بأن بنايات شوارع مثل تلك منازل، لكن يبدو أن تلك الشوارع كانت مجهولة لـ«أنيس» الذي ظل يتبع توجيهات الشيخ إسماعيل بالسير في هذا ثم الانعطاف عبر ذاك، وهذا شيء منطقي بالنسبة لي، فأنا لا أظن أن واحدا مثل «أنيس» قد يُسمح له بالسير في شوارع مثل تلك في الظروف العادية.

كانت غاية الشيخ إسماعيل بيتا عاديا مكونا من طابقين لا يبدو عليه أي من مظاهر الترف ولا يوحي بالأهمية التي تفرضها التأمينات من حوله.

ترجل الشيخ إسماعيل من السيارة ثم تبعه «أنيس» الذي بادر بحمل الفتاة فاقدة الوعي ثم لحقت أنا بهم إلى داخل البيت.

كان جليًّا لنا أن وجود الغرباء في هذا المكان يعد أمرا يثير حنق البعض، لكن الشيخ إسماعيل كان يحاول بنظراته جعلهم يخفون انطباعاتهم تلك لأجل قريب يتناقشون فيه.

لما صعدنا إلى الطابق الثاني أخبر الشيخ إسماعيل الحاضرين - وقد كانوا ثلاثة من الرجال كبار السن - بشيء من الاقتضاب عن محاولة الاغتيال التي تعرض لها وراح ضحيتها عدد من رجاله كما حدثهم عن دورنا في إنقاذ حياته وحياة الفتاة التي حملها أحدهم عن «أنيس» واستدعى آخر زميلا لهم بدا لي أنه طبيب أو ربما شخص يعلم الشيء الكثير عن الطب.

همس الشيخ إسماعيل بكلمات غير مسموعة في أذن أحدهم قبل أن يعرض علينا الدخول إلى إحدى غرف الشقة الكبيرة، وكان جالسا بها شخص مسن شديد بياض الشعر ذو لحية طويلة تعرف عليه «أنيس» فور رؤيته فهرول ليجثو على ركبتيه أمامه ويقبِّل يده.. ثم نهض وتراجع إلى الخلف قليلا فأشار له الرجل بالجلوس فنظر «أنيس» نحوي وكأنه أراد أن يقدمني للرجل فالتفت الرجل بوجهه نحوي ثم همَّ بالوقوف بمساعدة رجل آخر كان قريبا منه ومد يده ليصافحني مبتسما.

جلس الجميع ودار حديث ودي بين «أنيس» والحاضرين، وبالطبع لم أكن لأميز شيئا مما قيل، فأنا لا أعلم العربية، لكن الشيخ العجوز أراد أن يجاذبني أطراف الحديث فرفع بصره نحوي وقال شيئا بالعربية ترجمه لي «أنيس»: «إن معروفك هذا لن ننساه لك أبدا». فعبرت له عن امتناني وشكري لحفاوة استقباله ثم أردت أن أستأذن في الانصراف، فالتفت الرجل بوجهه نحو ذاك الجالس عن يمينه فنهض من فوره قائلا بالعربية أيضا: «هذه إهانة لنا، أنتم ضيوفنا ويتحتم علينا أن نكرمكم» ثم هرول صارخا بإحضار طعام الغداء.

أردت أن أعتذر إلى الرجل لكن يبدو أن الأمر كان حتما مقضيا.

بعد الغداء دار بيننا حوار ودي خشيت تسجيله حول تاريخ الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي. كان الرجل العجوز أو الشيخ أحمد يتحدث باستفاضة عن حق الأرض مستدلا بأجزاء من التاريخ ينسبها الفلسطينيون لأنفسهم وكذلك الإسرائيليون.

كان الرجل يجيب عن كل الأسئلة التي تدور برأسي وكأني قد عرضتها عليه مسبقا.. لم يكن الأمر بحاجة إلى عقلية فذة أو عراف مطلع على الغيب؛ فالقضية على حالها منذ وعد «بلفور»، نفس الأسئلة، نفس الأجوبة ونفس النتائج.

لم يقطع حوارنا هذا إلا إشراقة «خديجة» عند مدخل الغرفة فأوقف الشيخ

أحمد حديثه وأشار لها بالدخول.. فتقدمت «خديجة» فقبّلت يده ثم جلست إلى جواري حاملة إليّ ابتسامة مشرقة وكأنها تشكرني على إنقاذ حياتها لكن بشكل صامت يفرضه اختلاف اللغات وتذوب عنده الحدود واختلاف الثقافات.

بعد جلسة غنية بالحوار الفعال الذي يخدم موضوع كتابي بالطبع هممت أنا بطلب الإذن في الرحيل. وإذا بالشيخ إسماعيل ينهض فجأة فنهضت أنا بدوري ظنا مني أنه يودعني وإذا به يخبرني بعد أن طلب من «أنيس» ترجمة ما سيقوله:

- «لن تغادروا هذا المكان في الوقت الحالي، فهذا قد يعرضنا وإياكم للخطر، أرجو أن تقبلوا استضافتنا لكما إلى أن تستقر الأمور».

أثار قوله جنوني حين أدرك عقلي أني محتجزة دون وجه حق فانفعلت وأنا أقول:

- «لا يمكنك...»..

فقاطعني هو حين قال محتدا:

- «بل يمكنني.. انظري حولك أيتها الأجنبية وحينها ستعلمين من هو صاحب القرار هنا».

كان هذا تصرفا عدائيا للغاية من الشيخ إسماعيل الذي أنقذت حياته لتوّي، فتدخل الشيخ أحمد لتهدئة حدة التوتر الذي ساد بيننا بقوله:

- «أنت هنا في ضيافتنا، لست أسيرة، ولن نساوم على حريتك، أنت هنا في أمان تام وحريتك أمر غير مطروح للنقاش، لكننا نأمل في أن تقدري الموقف جيدا، وأنا واثق من رجاحة عقلك»..

مروان

رحلة طويلة، لا أعلم كم استغرقت من الوقت، ولا أهتم ما دامت قد انتهت؛ فبعد ساعات من السفر ومئات من الكيلومترات توقفت السيارة فجأة، وأجبرني من معي على الترجل منها، ثم صحبني اثنان منهما فمشينا لدقائق قبل أن نتوقف لنهبط تحت الأرض.

لا أعلم بالطبع لِمَ قد هبطنا، ولا أعلم ما هذا الذي هبطت فيه وإن كنت أرجح كونه نفقا تحت الأرض؛ فقد هبطنا فيه ومشينا قليلا ثم توقفنا لنستقل سيارة بداخله! أي نفق هذا الذي يستوعب سيارة بداخله؟!

قطعت السيارة مسافة ليست بالطويلة قبل أن تتوقف فنترجل منها مجددا، ثم يتم إخراجي من النفق، فنمشي عدة خطوات قبل أن نستقل سيارة أخرى تقطع بنا مسافة أخرى فتنتهي الرحلة.. فعند توقف السيارة شعرت بأنهم يدفعون بي إلى داخل مكان ما ثم أجلسوني إلى أحد المقاعد.

تملكتني مشاعر متضاربة بين الخوف واللامبالاة؛ فما مررت به في حياتي وآخرها اختبار الموت كفيل بأن يذهب عني أي قلق بشأن هذه الحياة.

لم يدُم انتظاري طويلا؛ فقد بدا من صوت وقع الأقدام الذي علا مقتربا أن صاحب الطرد قد حضر لتسلمه؛ فبعد رحلة مثل هذه لم يكن من الصعب عليَّ أن أدرك كوني طردا يتم توصيله لصاحبه، لكن من صاحبه؟

كسر الصمت المخيم على المكان صوت همهمات غير مفهومة، أظنها مناقشات بين بعض الموجودين داخل المكان، لكنها بدت بلهجة غير مصرية، يمكنني تمييز ذلك حتى إن لم أكن أسمع أحاديثهم بشكل جيد.

لم أكن لأنتظر أكثر من ذلك فعلا صوتي بالسؤال:
- «من أنتم؟ وأين أنا؟»..
توقفت همهماتهم وساد صمت أحسبه صمت نظرات يتبادلونها بحثا عن متطوع للإجابة، حتى حضر المتطوع الذي اقترب بخطواته مني قائلا:
- «هذا هو نفس السؤال الذي أردنا سؤاله لك.. من أنت؟»..
كانت لهجة شامية، في أغلب الظن فلسطينية، لكن لِمَ أنا هنا في فلسطين، أم أن هؤلاء الفلسطينيين في مصر؟!
- «كيف سأجيبكم وأنا قد حُملت إليكم معصوب العينين لا أعرف أين كنت ولا أين أكون الآن؟»..
ساد الصمت مجددا ثم دارت عجلة الحيرة بينهم وعلت الهمهمات، ويبدو أنهم توصلوا إلى حل للنزاع بجملة لم يعلق بأذني منها سوى كلمة واحدة «خديجة».
ترى من هي «خديجة» هذه؟ لعلها عرَّافة ستنظر في راحة يدي فتنطق باسمي واسم والدتي ثم تصرخ مثيرة الرعب في قلوب الحاضرين قبل أن تقول إني رسول من قِبل الجن مثلا!
عاد الصوت ذاته ليسألني:
- «قل لي ما اسمك؟»..
ترددت قليلا قبل أن أنطق به، فأنا لم أكن أعلم ما قد يترتب على أي كلمة سأقولها الآن:
- «مروان»..
- «اسمك كاملا»..
- «مروان محمود مالك»..
إن لم أكن معصوب العينين لأقسمت بأن دهشة اعتلت وجوههم من فرط الصدمة؛ فقد علت همهماتهم وسمعت أحدهم يقول «مستحيل» وآخر يقول «هو حتما كاذب» حتى حضرت «خديجة»، فقد شعرت أذناي بتلك

الخطوة النسائية التي اقتربت مني إلى حد التلامس، كنت أشعر بأنفاسها القريبة، أحسست حينها أنها تشتم رائحتي.

ثم تراجعت وهي تقول بصوت مسموع:

- «هذا ليس مازن وإن كان يشبهه إلى حد بعيد، لكنه حتما مجرد شبيه له، جميعنا نعلم أين هو مازن الآن»..

فعلا صوت الرجل مذهولا:

- «لكنه يقول إن اسمه مروان محمود مالك يا خديجة!»..

اقتربت «خديجة» مني مجددا فتطوعت بقطع حيرتهم متسائلا:

- «هل مازن هذا الذي تقصدونه هو شقيقي مازن محمود مالك؟»..

فأجابني الرجل باحتقار بدا في نبرة صوته:

- «نعم نحن نقصد مازن محمود مالك، لكنه ليس شقيقك بكل تأكيد؛ فمازن لم يذكر شيئا عن وجود أشقاء له، وبخاصة إن كان شقيقه هذا توأمه!»..

- «صدقوني أنا مروان توأم مازن، كيف عساكم تجدون شبيها له إلى هذه الدرجة إن لم يكن شقيقه من لحمه ودمه؟»..

- «يقولون في مصر: يخلق من الشبه أربعين!»..

لكن يبدو أن لـ«خديجة» رأيا آخر؛ فقد صاحت منهية الجدل الدائر بيني وبينه قائلة:

- «توقفوا»..

ثم وجهت حديثها إليَّ قائلة:

- «قل لي يا مروان، هل لديك صور جمعت بينك وبين مازن من قبل؟»..

- «لم نكن نحب التصوير كثيرا، وكنا دائما ما نتحاشاه، لكن أبي اختلس بضع صور لنا في أثناء طفولتنا»..

- «هل تذكر صورة جمعتكما بوالدتكما؟»..

- «أجل، أذكر هذه الصورة جيدا؛ فقد ألقيت بنسختي منها في قبر والدتي

قبل أن يتوفاها الله، وأظن أن النسخة الوحيدة الباقية بحوزة مازن»..

- «صف لي هذه الصورة يا مروان»..

- «لا أعلم كيف عليَّ أن أصف صورة، لكن لنقل إن أمي كانت جالسة إلى مقعد أبي المفضل إلى جوار الكاسيت القديم، وأنا أقف عن يمينها ومازن عن يسارها، كل منا يضع يده فوق كتفها»..

التفتت «خديجة» نحوهم، أو هكذا تخيلت المشهد المحجوب عن رؤيتي، وهي تقول:

- «هو صادق، لقد رأيت هذه الصورة مع مازن قبل زواجي منه، ولم تتح لي الفرصة حينها لسؤاله عنها»..

- «زواجك! زواجك من مازن شقيقي؟»..

قلتها أنا في دهشة فقد صرت فجأة أمام زوجة شقيقي «مازن» الذي لم أره منذ سنوات.

- «أجل»..

- «وأين مازن الآن؟»..

صمتت قبل أن تقول في حزن وتأثر بالغين:

- «شقيقك مازن عند ربه الآن، نحسبه عند الله شهيدا»..

أي كلمات قد تعبر عن حزني على وفاة شقيقي الذي لطالما حلمت باللحظة التي ستجمعني به، لطالما ظننت أن الأيام التي فرقت بيننا مهما طالت فهي إلى زوال.. لكن لم أكن أظن أن اليوم الذي سألتقي فيه بمن عاش أخي برفقتهم سيكون اليوم نفسه الذي يُزف إليَّ فيه خبر وفاته.

انحدرت قطرات دموعي على وجنتي، لم أكن قادرا على فرض سيطرتي عليها. كان الصمت يكمم أفواه الحاضرين، لم يكن أحدهم يملك كلمة من شأنها أن تخفف آلام الفراق، لكن «خديجة» كسرت الصمت المخيف لها بقولها:

- «انزعوا عنه العصابة»..

فانزعج الواقفون وبدت همهماتهم الغاضبة رافضة لهذا الأمر، لكن

«خديجة» أصرت وكررتها للمرة الثانية فامتثل لها أحدهم وقام بنزع العصابة عن عينيَّ.

كان الموجودون بالغرفة ستة أشخاص يرتدون زيا عسكريا، بالإضافة إلى «خديجة» التي كانت ترتدي هي الأخرى زيا عسكريا وشالا فلسطينيا يغطي رأسها.

ابتسمت «خديجة» وهي تقول:

- «أهلا بك في وطنك الثاني.. فلسطين»..

مروان

كنت أتأمل مرافقي أو حارسي - فأنا لا أعلم طبيعة المهمة المكلف بها - المراهق الذي يحمل بين ذراعيه سلاحا يثقل كاهله، حين عصفت برأسي وساوس الحيرة عمَّا قد يدفع مراهقا مثله للغوص في هذا الوحل، فقررت سؤاله بشكل مباشر:

- «كم عمرك يا فتى؟»..

انتبه الفتى الشارد لصوت مخاطبه فتلفت من حوله كمن يبحث عن إذن بالإجابة ثم قال في رجفة ملكت صوته المنخفض:

- «ثمانية عشر عاما»..

يا الله، كيف لهذا الصغير أن يكون جزءا من هذا؟ فسألته بنبرة مشفقة على حاله وهو المراهق:

- «ومن الذي دفع بك إلى هذا يا بني؟ ما يجبرك على هذا؟»..

رمقني الفتى بنظرة مشفقة على حالي في تبادل لحظي للأدوار وهو يجيبني بلهجة حكيمة لا تناسب سنه الصغيرة:

- «كلنا مجبرون على هذا، أنا والشيخ أحمد والشيخ إسماعيل وحتى خديجة. الجميع مجبر على حمل السلاح والتضحية بروحه إن اقتضى الأمر حتى يأذن الله لنا بأن نسترد وطننا»..

فقلت في عجب تسرب إلى صوتي:

- «أي وطن؟»..

فأجابني في ذهول:

- «فلسطين!»..

فبادرته بالتساؤل:

- «ألست بوطنك الآن؟ فعن أي وطن تتحدث إذًا؟»..

فأجابني في لهجة حماسية مناسبة لسنه قائلا بعينين جاحظتين وعروق بارزة ووجه صبغه غليان دمه باللون الأحمر:

- «نحن نتحدث عن الأرض التي انتُزعت منا رغما عنا، القدس ويافا وحيفا وبئر السبع والناصرة وعسقلان، ووالله لا ندعها حتى تقوم الساعة»..

صمتُّ برهة كي أترك لحماسه المشتعل فرصة للهدوء قبل أن أعاوده مجددا:

- «يا ولدي، لقد صارت مدنا يعيش بها آخرون ممن هم في مثل عمرك، وُلدوا وترعرعوا بها، لا ذنب لهم في هذه الحياة إلا ولادتهم على أرضك التي تتحدث عنها»..

اشتعل الحماس بداخله مجددا وهو يعود لثورته قائلا:

- «وما ذنب هؤلاء الذين هُجِّروا من ديارهم؟ وما ذنب أولئك الذين رحلوا عن فلسطين حين ضاقت بهم؟ وما ذنبي أنا كي أولد طريدا في وطني؟»..

فأجبته وقد بدا الانفعال جليا في لهجتي:

- «أنت من تختار هذا الطريق! لِمَ لا تقبل بواقعك الحالي بعد أن تفرض شروطك التي تحفظ السلام لك ولأهلك؟»..

هدأت ثورته فخلت أنه اقتنع بحديثي هذا، لكنه شرد ببصره بعيدا كمن يتأمل ذكرياته البعيدة وهو يقول:

- «هذا ليس خيارا، هذا واجب.. التخلي عن الأرض خيانة»..

فأردت تدارك مجرى الحوار الذي انفلت زمامه لتوه قائلا:

- «لا يمكن اعتبار السلام خيانة، هذا ضمان لمستقبل...»..

لكنه قاطعني منفعلا:

- «ولِمَ لم تعقد أنت سلاما مع إسرائيل فتترك لها سيناء التي ظفرت بها في ١٩٦٧؟ لِمَ حارب آباؤك واستشهدوا في سبيل استردادها؟ لِمَ جانبوا السلام

مع إسرائيل وقد كانت مجرد قطعة أرض لم تعرفوا يوما قيمتها، حتى بعد أن حررتموها؟»..

صمتُّ دون إجابة مني، فصمت الفتى بدوره، قبل أن يأتي أحد رفقائه ليخرق هدنة الصمت التي فُرضت بيني وبين الفتى.

كانت الحيرة واضحة على رفيقه الذي كُلِّف لتوه بمهمة لا يعرف إليها سبيلا، لكني استطعت بما أعانتني أذناي على سماعه أن أخمن طبيعة المهمة.

كانوا يحتاجون إلى مترجم من وإلى الفرنسية، فأخبرتهم بإجادتي للفرنسية بحكم دراستي والفترة التي قضيتها في فرنسا فأسعدهم ذلك كثيرا، كانوا يذكرون شيئا عن وفاة شخص يدعى «أنيس» في أثناء تغطيته لوقائع القصف الإسرائيلي الذي أرسلوه خصيصا لتغطيته، لم أكن أعرف «أنيس» لكنهم كانوا يواجهون صعوبة في إخبار مرافقته الفرنسية بنبأ وفاته.

صحبني أحدهم إلى الطابق الثاني لأول مرة منذ حضرت إلى هذا المكان قبل يومين، ثم أدخلوني إلى الغرفة التي تجلس بها الفتاة.. كانت الفتاة تجلس منكسة الرأس يخفي وجهها شال تدلى من فوق رأسها.. كانت جلستها توحي بأن نهر أحزانها قد يفيض إن أضفنا إليه نقطة أخرى.

التفتُّ نحو مرافقي في صمت فهز رأسه بالمضي قدما، فاقتربت منها قليلا ثم توقفت بعد أن تركت بيني وبينها مسافة مناسبة وأنا أقول:

- «سيدتي.. لقد توفي اليوم مرافقك أنيس في أثناء تغطيته لـ...»..

«سيمون!»..

كانت ترفع رأسها نحوي وهي تزيح الشال عن وجهها قائلة في ذهول:

- «مروان!»..

هل هذا ممكن، أن أقابل «سيمون» مجددا؟! وأي رياح أتت بك إلى هنا يا «سيمون»، أهو القدر الذي ربط بين قلبينا حتى زوالهما؟ لكن، هل تشعرين بهذه السعادة التي غمرتني ما إن رأيتك يا «سيمون»، أم أن لديك مشاعر أخرى ليست كتلك التي بداخلي؟

اكتفت «سيمون» بنظرة ملؤها الغضب تقول دون أن ينطق لسانها: «لم أنسَ ما فعلته بي، لم ولن أسامحك يا مروان». أتفهم غضبك يا «سيمون»، لكني لا أتفهم امتناعك عن مسامحتي، أيكون حبا إن خلا من الغفران؟ وعن أي حب تتحدث أنت وقد خنت حبك لـ«سيمون» بحبك لـ«فريدة»، ثم خنت الاثنتين بعلاقتك الجنسية بـ«مديحة»؟!

هل هناك من هو أحقر منك في هذا العالم يا «مروان»؟

كنت أستحق احتقار «سيمون» الذي منعها حتى من مجرد التعبير عن ذهولها لرؤيتي، واكتفت فقط بالسؤال عن مرافقها «أنيس» فأعدت تلاوة الخبر على مسامعها كاملا هذه المرة.

غلبت دموع «سيمون» ملامح القسوة التي فرضتها على وجهها.. بكت «سيمون» رفيقها، وهل بكتني أنا؟ هل حزنت لفراقي؟ كم من الليالي أبكيت عينيكِ الجميلتين يا «سيمون»؟ كيف لي أن أطلب العفو منك الآن؟ حاولت الاقتراب منها لعلها تسمح لي بكفكفة دموعها واحتضانها كما اعتدت أن أفعل فأظهرت الرفض، أنت كاذب يا «مروان»، إن كنت تعبأ بدموعها لما تركتها أبدا.

التفتُّ عائدا بعد أن فقدت الأمل هنا مع «سيمون»، حين سألني أحدهم: «هل تعرفها؟». فألقيت نظرة نادمة نحوها قبل أن أكمل طريقي دون إجابة فاستوقفتني «سيمون» قائلة:

- «انتظر»..

مجرد كلمة عابرة أحيت روحي المسكينة، وبعثت بالأمل في نفسي بعد فقدانه، شعرت بخفقان قلبي يتوقف مجددا وهي تقول بشيء من الاحتقار:

- «أخبرهم أنني أود الرحيل من هنا، وفي أسرع وقت ممكن»..

لا ألومك يا «سيمون»، بل ألوم نفسي.. فأنا أستحق أكثر من هذا، لكني أملت في فرصة أخرى قررت أن أطلبها منها بعد أن ترجمت حديثها إلى الرجل الواقف إلى جواري.

- «دعينا نرحل معا يا سيمون، لنبدأ حياة جديدة»..

التفتت ببصرها نحوي وقد جثوت على ركبتي أمامها ثم نهضت مبتعدة عني قبل أن تدير ظهرها لي وهي تقول:

- «أتذكر حديثنا الأخير يا مروان قبل أن تتركني وتمضي في حياتك غير مكترث بمن ادعيت حبها يوما؟»..

صمت، فلم تكن حتى وقاحتي تجرؤ على الرد، فأكملت هي دون انتظار لرد لن يقال:

- «الفروق بيننا كبيرة يا مروان»..

ثم التفتت ببصرها نحوي لتجد حبيبها المهزوم قلبه، وقد لمعت في عينيه دموع الندم فقالت قولتها الأخيرة:

- «لقد تأخرت كثيرا يا مروان، فلم يعد الوقت مناسبا حتى للندم»..

ثم عادت لتجلس على عرشها بعد انتصارها على من ظلمها يوما، فالتفتُّ خارجا من الغرفة دون أي تعقيب مني.

سيمون

استدعاني الشيخ أحمد إلى غرفته، فأتيته بصحبة واحد من رجاله، حيث وجدت «مروان» برفقته، فرفع رأسه المتكئ على عصاه والتفت ببصره نحوي في حزن وهو يقول:

- «أردت أن أعتذر إليك عمَّا بدر منا، وأتمنى ألا تكون ضيافتنا لك قد أزعجتك، لكن على أي حال، استعدي للسفر غدا بإذن الله»..

- «السفر! إلى أين؟»..

- «إلى بلدك»..

فأعدت تكرار سؤالي مجددا:

- «إلى أين؟»..

دهش الرجل، لكنه مع ذلك مضى في الإجابة عن سؤالي:

- «إلى فرنسا، هل لديك بلد آخر؟»..

- «كلا»..

- «إذًا فاستعدي للمغادرة غدًا، ستستقلين الطائرة في المساء من مطار بيت لحم»..

كان حديث الرجل قد انتهى، لكن حديثي ما زال لم ينتهِ بعد، كنت أجهل مصير «مروان» الذي عمل على ترجمة حديثي المتبادل مع الشيخ أحمد دون أن يرفع بصره نحوي، كنت أشعر بخجله وغضبه، لكن ما فات قد مات.

غلبتني جرأتي فوجهت سؤالي إلى «مروان»:

- «وماذا عنك؟»..

فرفع «مروان» بصره بشيء من نشوة الأمل فالتفت نحوه الشيخ وقد بدا وكأنه يسأله عمَّا نطقت به لتوي، فابتسم الشيخ حين ترجم «مروان» سؤالي له الذي أجابه نيابة عنه بالعربية وترجمه لي «مروان» بالفرنسية..

- «لا تقلقي بشأن مروان، مروان جزء منا.. سنرسله إلى رجلنا في الأردن ليستقل طائرته من هناك بعد أن يعد له أوراق هويته الجديدة.. حين تستقر الأمور سيكون بإمكانك أن تزوريه حيث موطنه الجديد، الذي سيعلمك به حين يصله بإذن الله»..

ثم أتبع بابتسامة الوداع:

- «بإمكانك أن تنصرفي الآن»..

خرجت من غرفته عائدة إلى أفكاري التي تنتظرني بغرفتي، لِمَ أشغل بالي الآن بـ«مروان»؟ ألم تطوي صفحته بعدُ يا «سيمون»؟

ليس بإمكاني نسيان «مروان»، ليس بإمكان قسوة قلبي أن تمحو كل أثر له بداخله. ليتني أملك تلبية طلبه، ليتني أملك نسيان كل شيء والمضي في حياتي قدما برفقته مجددا، لكن، تأخرت كثيرا يا «مروان».

مروان

حين وصلت إلى الأردن تسلمني رجلهم هناك، حسب ما سمعته من مرافقي قليل الكلام.. كان رجلا يبدو في مثل عمري تقريبا، لا أعلم حدود إمكانات الرجل ليكون محل ثقتهم إلى هذه الدرجة، لكن ما أعلمه أنه صحبني إلى مكان يخص صديقا له فصبغ شعري باللون البني ووضع لي عدسة لاصقة خضراء ثم التقط لي صورة فوتوغرافية.. وبعدها صحبني إلى شقة طلب مني المبيت فيها حتى الغد، حيث سأستقل طائرتي الأخيرة.

كان لديَّ عدد من التساؤلات المشروعة، فماذا يقصد بالأخيرة؟ وكيف أستقل طائرة غدا وأنا لا أملك حتى جواز سفر، ناهيك عن التأشيرة المطلوبة للوجهة التي لم أكن قد علمتها بعد؟

حين حاولت طرح الأسئلة اكتفى بالقول:

- «سنسافر غدا بإذن الله، فقط كن حريصا على أن تنال قسطا من الراحة»..

أهذا كل شيء؟

كان الرجل يدرك مثقال كل كلمة ينطق بها؛ ففي اليوم التالي مر بي ليصحبني إلى مطار الملكة علياء الدولي، وهناك أعطاني جواز سفر لم أتعرف على شيء مما فيه سوى صورتي التي التقطها لي الليلة الفائتة. أما عن البيانات الأخرى المذكورة بجواز السفر والتي تخص مواطنا سويسريا يدعى «ألكسندر جرفيه» فقد اكتفى بالقول: «احفظها جيدا فحسب»!

انتظرنا زمنا قبل أن يخبرني بموعد الطائرة التي تنطلق في السابعة إلى مطار جينيف على طائرة الخطوط الملكية، ثم قال:

- «لن تسافر وحيدا، لديك مرافق ما زلنا بانتظاره»!
ومن عساه أن يكون هذا المرافق؟ أنا لا أتوقع قدوم أحد! ومن بقي ممن عرفتهم في حياتي؟ كلهم ولوا مدبرين بعيدا عني.
فجأة انتفض واقفا وهو يقول:
- «ها قد أتت»..
فسلطت بصري نحو الوجهة التي قصدها بصره فإذا بي أرى امرأة لا أعرفها، لكن لِمَ قد ترافقني امرأة مجهولة بالنسبة لي؟
أمعنت النظر قليلا في وجهها حين اقتربت لمصافحتي فتعرفت عليها «خديجة»! كانت تلك المرأة هي «خديجة» لكن بعد أن نزعت عنها شالها وزيها العسكري المخيف.
لفت انتباهي الرجل بالتأكيد على عدم ذكر هذا الاسم مجددا فاسمها من الآن فصاعدا «ريتاج»، مواطنة أردنية، وليس هذا فحسب بل هي زوجتي أيضا كما ذكر.
حين حانت اللحظة المرتقبة مررنا بالجوازات فكنا أسرع المارين منها، لم يعبأ موظفو الجوازات بأي من بياناتنا المذكورة في جواز السفر، أهكذا الحال في الأردن؟
صعدت إلى الطيارة برفقة «خديجة» بعد أن ودَّعنا مرافقنا الذي لم أعرف اسمه حتى الآن.
بعد أن اطمأننت إلى وضع الحقائب جلست في مقعدي إلى جوار «خديجة» ثم مضى بعض الوقت قبل أن تبدأ عجلة الأسئلة في الدوران:
- «ألم يحن الوقت بعدُ للحديث عن مازن؟»..

خديجة

صمتُّ برهة قبل أن أمضي:

- «أنت تعلم بالطبع أن شقيقك كان منتميا إلى جماعة الإخوان المسلمين في مصر، التي تعتبر حماس الفرع الفلسطيني لها»..

- «أجل»..

ثم تابعت:

- «ألح أخوك على أحد قياداتها أن يوفر له فرصة للسفر إلى فلسطين، فلطالما حلم شباب الجماعة المصريون أن ينالوا شرف الجهاد بالأراضي المقدسة.. استجاب الرجل لإلحاح مازن ورتب له أمور سفره، ثم حضر إلى هنا فالتحق بكتائب القسام وتم تدريبه وإعداده فأثبت كفاءة عالية خلال المهمات التي اشترك في تنفيذها وعرف بيننا بصلاح الدين المصري، هكذا أراد لنفسه أن يكون»..

أكملت وسط انتباه «مروان»:

- «أراد الموساد أن يخترق الكتائب عن طريقه؛ فهو بالنسبة لهم ضيف على معركة ليس حتى طرفا بها، فحاولوا شراءه كي يستغلوا قربه من قيادات الحركة ليمدهم بأسرارها، حتى يتمكنوا فقط من حماية المدنيين الأبرياء، على حد زعمهم. على أن ينال مازن جنسية الدولة التي يختارها وأن يكون تحت الحماية الإسرائيلية في أي بقعة أرض تطؤها قدمه، إضافة إلى عائد مادي يحدده هو بما يضمن له جنة الله على أرضه»..

فتساءل «مروان» في ذهول:

- «وكيف لهم أن يثقوا في مازن وهو واحد من أعدائهم؟ لقد حضر من مصر خصيصا من أجل قتالهم!»..

فأجبته:

- «لم يأت العرض من فراغ؛ فقد سلطوا واحدا من رجالهم الذين لا يحملون من فلسطين إلا جنسيتها كي يعبث برأس مازن ويطعن في كل معتقداته، حتى أحس أن مازن قد صار جاهزا للخطوة التالية فأتى العرض المغري لشراء النفس الضعيفة»..

- «وهل ضعف مازن فعلا؟»..

- «كلا بالطبع، مازن أخوك داهية لا يسهل خداعه، ثم إن المخابرات الأردنية بما لها من رجال في أراضينا علمت بشأن محاولات الموساد تجنيد مازن، ففتحت معه قناة اتصال وطلبت منه قبول العرض»..

- «كيف هذا؟ وما شأن المخابرات الأردنية؟»..

- «أرادت المخابرات الأردنية أن تستغل الفرصة التي لا تتكرر، فأرادت من مازن أن يكون جاسوسها لدى إسرائيل، لما ستتاح له من قنوات اتصال بعدد من قيادات الموساد، فما المانع من إخبارهم بعدد من المعلومات المحسوبة عن حركة حماس في مقابل استدراجهم إلى عدد أكبر من المعلومات التي تهم مصلحة الأردن وتضر بأمن إسرائيل وهو الشيء الذي يجمع بيننا جميعا؟!»..

- «لكني ما زلت عاجزا عن التصديق أن أخي قد يعمل لصالح مخابرات بلد آخر!»..

- «ألم يأت بالأساس للقتال لصالح بلد آخر؟»..

- «وماذا عن حركة حماس؟ ألم ترفض عمل واحد من رجالها لصالح مخابرات دولة أخرى؟»..

- «إنها سياسة المصالح، شيء في مقابل شيء، وما يربطنا بالأردن كان كفيلا بالقبول».

تجاوز «مروان» الحديث في هذا الصدد ثم تساءل مجددا:
- «وماذا كانت مهمتك أنت؟»..
- «كانت مهمتي واضحة وبسيطة ومحددة، كنت عضوا بكتائب القسام التي ألحقني بها العجوز الذي رباني ودربني، وحين عرضت المهمة على مازن طلبت مني المخابرات الأردنية التقرب من مازن على أن تكون مهمتي أن أقتل مازن إن انفضح أمره لدى الموساد»..
- «يا لها من مهمة، لكن هل كنت متزوجة من مازن حينها؟»..
- «كلا، ولم يكن بيننا أي علاقة من هذا النوع، لكنها بدأت بمرور الأيام؛ فقد تحول تقربي منه من مجرد مهمة إلى حب حقيقي كان عليَّ إخفاؤه عنهم»..
- «وهل كنت لتفعلين ذلك بعدها؟»..
- «لا يمكنك المفاضلة بين وطنك وأي شيء آخر»..
بدا «مروان» مذهولا لمجرد التفكير في إمكانية حدوث الأمر، لكنه تابع تساؤلاته:
- «أخبريني إذًا، هل نجح مازن في مهمته تلك؟»..
- «أجل، فقد استطاع أن يكشف لهم جاسوسا زرعته إسرائيل داخل الأراضي الأردنية عن طريق صديق اكتسبه داخل الموساد، لكن تلك كانت نهاية مهمة مازن، فكانوا سيكتشفون أمره بعدها بلا شك»..
- «وكيف تصرفتم في هذا الصدد؟»..
- «دبرنا فيلما قصيرا، نشرنا شائعات تنص على اعتقال مازن من قبل السلطة المصرية، فيما تصر السلطة المصرية على إخفائه، حتى إننا اختطفنا ثلاثة من ضباط الشرطة المصرية وفاوضنا السلطات هناك من أجل استرداد مازن الذي يخفونه على أن نقايضه بضباطهم الثلاثة، في حين كان مازن نائما بسلام في الأردن.. ظل التجاهل ثم التعنت ثم الإنكار هو الموقف الرسمي المصري، حتى فوجئنا بتغير في سير المفاوضات، حين أخبرنا رجال الداخلية باستعدادهم لإتمام الصفقة! كنا في حالة من الذهول والرعب أيضا، فهذا

يفسد كل مخططنا، ويعيد تهديد حياة مازن! وحين انكشفت لنا حيلة الشرطة المصرية التي بمقتضاها تم تسليمك إلينا باعتبارك مازن، اتفقنا جميعا على ضرورة إخفائك في أسرع وقت، فدبرنا أمر سفرك هذا، وها أنت ذا تغادر بلا عودة»..

- «هلا حدثتني عن الطريقة التي توفي بها مازن؟»..

ضحكت وأنا أقول:

- «مازن لم يمت، لقد اضطررنا لقول هذا حين فوجئنا بك»..

- «ماذا؟ وأين هو الآن؟ أخبرني أرجوك».

- «انظر إلى آخر مقعد عن اليمين»..

جال «مروان» ببصره في المقاعد الخلفية ثم عاد ليلتفت نحوي متسائلا:

- «أتخدعينني إذًا! مازن ليس على متن هذه الطائرة»..

ثم التفت مجددا وهو يتساءل:

- «لكن لِمَ صعد مرافقنا الأردني هذا إلى الطائرة؟ ألم نودعه بالمطار؟»..

ضحكت وأنا أجيبه:

- «هذا الأردني هو أخوك مازن الذي اضطرت المخابرات الأردنية لتغيير ملامحه حفاظا على حياته وأمنها»..

أراد «مروان» النهوض من مكانه والقفز في أحضان أخيه وكذلك أردت أنا فقد اشتقت إليه، لكني منعته ومنعت نفسي، وطلبت منه المكوث في مكانه حتى تهبط بنا الطائرة إلى أرض المطار.

المسافرين الكرام.. الرجاء ربط الأحزمة.. استعدادا للهبوط في مطار جينيف.

تمت بحمد اللهُ

٢١ أبريل ٢٠١٣